AUC Library
BR 1600 T3X 1947 c.1 main
AL-TAWIIL, T/QISSAT AL-IDTIHAAD AL-DIINI
3 8534 00926765 3

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

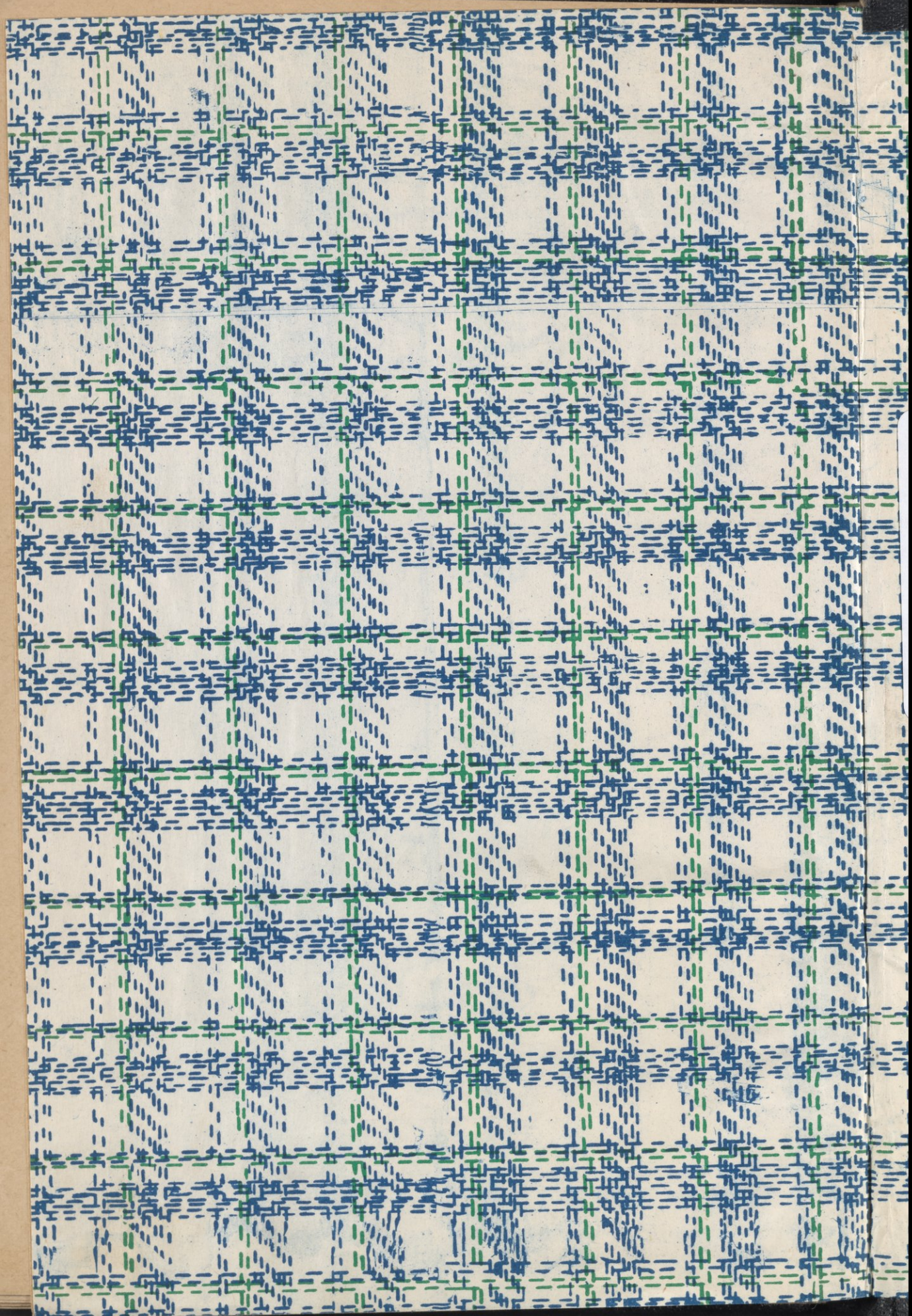

RSITY

الجام

BR
1600
T3x
1947

قصة الاضطهاد الديني

في المسيحية والإسلام

للدكتور توفيق الطويل

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

دار الفكر العربي

مطبعة دار نشر الثقافة
بالاسكندرية

٩٢٠٠٢
ط٢٠م

[redacted]

اهداء الكتاب

عاش إيمانا عميقا يضيئه نورٌ من العلم غير ظنين ، برىء من اللفظ النابي والمسلك الجارح والميل الحقود ؛ وتأبىَّ على داعي الحقد والتعصب والهوى ، وفاض سماحةً وجودا ، وانبعث صفاء ونورا ؛ ثم توارى عن الدنيا - كالحلم اللذيذ الخاطف - على غير ميعاد ، وروَّعنا صوت الناعى المفاجىء : قضى - وثوى فى جنة الخلد أستاذنا الأكبر مصطفى باشا عبد الرازق فإنا لله وإنا إليه راجعون .

فإلى هذا الروح السمح الكريم - الذى زاوج بين الإيمان والتسامح فمثَّل أنبل فكرة فى هذا الكتاب - أهدي هذا البحث ، إحياء للذكرى التى لم يندمل جرحها بعد ؟

توفيق الطويل

رمل الاسكندرية فى ٥ مارس ١٩٤٧

قال فرعون:

« فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيدِيَكم وأَرجلَكم من خلاف ، ولَأُصَلِّبَنَّكم في جذوع النخل ، ولتَعلَمُنَّ أَيُّنا أَشد عذاباً وأَبقى . قالوا : لن نُؤْثرك على ما جاءنا من البَيِّنَاتِ والذي فَطَرَنَا ، فاقْضِ ما أَنت قاض ، إِنما تقضي هذه الحياةَ الدنيا »

قرآن كريم

مقدمة

تمهيد – علاقة هذا الكتاب بكتابنا عن النزاع – من قوانين الايمان – براءة الاديان من تبعات الاضطهاد – امكان الجمع بين الايمان والتسامح – ضرورة الابقاء على الايمان – لا يملك العدالة متعصب ذو نفوذ – من خصائص الغلو في الايمان – من شهداء الاسلام – من شهداء المسيحية الشرقية – من شهداء البروتستانت – من قتلى قريش – من شهداء البابية – ظمأ الانسان الى اهراق الدم – الشغف بالدم عند نساء قريش – الشغف بالدم فى الثورة الفرنسية – في محارق محاكم التفتيش – استعلاء الجانب الحيواني في الثورات – حق رجال الدين فى دفع الكفر – قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد – الاضطهاد عدوان على حرية الضمير

تمهيد

هذا كتاب يحكى فى نطاقه الضيق سيرة فكرة آثمة ، نزفت بها قلوب تغلى حقدا وتضطرم تعصبا ، فتوغل فى ارتكاب الاثم وتحمل الدين وزر ما تريق من دماء بريئة ، وما تجتاح من مبادىء إنسانية كريمة ! وعلى كره منها مضت مواكب الحرية فى طريقها قدما لا تتوقف ولا تتعثر ، إلا لتستأنف سيرها فى نشاط يحدوه الأمل الباسم ، وتوقده الغبطة بالظفر المبين .

وفى هذا الكتيب تتبعنا الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام ، فى صور سريعة تنم عن أسطع مظاهره ومعالمه ، وتشى بأظهر بواعثه وأسبابه ، وتشير إلى أوضح نتائجه وآثاره . فكشفنا موجزين عن الاضطهاد الدامى الذى أنزله الرومان بالمسيحية وشهدائها فى مراحل تاريخها الأولى ، وتتبعناه حين انتقلت دفته من يد الرومان إلى يد الكنيسة الكاثوليكية وأخذت

تكوى بناره خصومها من الكاثوليك - وقد كانت إلى الأمس القريب من ضحاياه ! ثم سايرناه فى الصراع الذى نشب بين هذه الكنيسة وخصومها من البروتستانت وغيرهم ممن عدوا فى زمرة المارقين ، وصحبناه حين آل أمره إلى المصلحين من هؤلاء البروتستانت ، فنكلوا بخصومهم فى غير رفق ولا رحمة ! وتعقبناه فى مقاومته لرواد الفكر الحديث حين نبت مبدأ التسامح فى رءوسهم واستبد هواه بقلوبهم ، فأغراهم بالاستشهاد مع أتباعهم فى سبيل الحرية الدينية راضين مختارين . وعقبنا على هذا بفصل عقدناه على الاضطهاد فى الإسلام وأبنا فيه عن موقف الدين الإسلامى من التسامح وحرية الاعتقاد، ثم انتهينا من هذا كله إلى بيان وجه العظة فى موضوع هذا الكتاب .

وقد مكنتنا طبيعة هذا الموضوع ومنهج بحثه من أن نتحرى فى علاجه البساطة فى التعبير والترفق فى مناقشة وجهات النظر - حتى لا يثقل الكتاب على المترفين من القراء !

علاقة هذا الكتاب بكتابنا عن النزاع

أما الترفق فى علاج الموضوع فمرجعه إلى أننا قد وضعنا هذا الكتيب على هامش كتابنا الذى أرخنا فيه النزاع بين الدين والفلسفة ، وانتهينا منه إلى نتائج كان من بينها القول بأن الاضطهاد يلازمه الإخفاق كلما نزع الى تقويض «فكرة صحيحة» اهتدى إليها النظر الفلسفى أو تكشف عنها البحث العلمى ، فما نهض رجال الدين بالقضاء على حقيقة ما - بالغا ما بلغت جهودهم فى هذا الصدد - إلا أخطأهم التوفيق وعاشت الفكرة الصحيحة على كره منهم - إن اختفت فى فترات الاضطهاد المشئوم

جد فى إحيائها أنصارها بعد انقضاء عهوده الكالحة .

وبينما كنت أعالج هذه الفكرة بالتفصيل فى كتابى « قصة النزاع بين الدين والفلسفة » نبتت عندى فكرة لاتدخل فى نطاق هذا الموضوع ، ولكنها تحتاج إلى كتيب أعقب به على كتابى السالف الذكر ، أما الفكرة فهى أن الاضطهاد يكتب له النجاح فى تحقيق غايته متى قدر له أن يعيش طويلا وكان ينصب على الإيمان الدينى فيبقى على مجاله ويحاول تغيير مجراه ؛ واستقراء تاريخ العقائد يقول إن مثل هذا الاضطهاد الدامى لا يخطئه التوفيق حين يهدف إلى إحلال دين مكان دين ، لأنه يجتث العقيدة من قلوب الناس ويغرس مكانها قواعد الدين الجديد ، فإن أخفق فى بلوغ غايته حصد الجيل القديم وأتى عليه تقتيلا وتنكيلا وتشريدا ، وعمد إلى الجيل الجديد ونشأه على ما يريد ، وإذا عاشت هذه السياسة عزت العودة إلى الدين القديم ؛ هذه حقيقة سجلها تاريخ الاضطهاد منذ أقدم العصور ، وكان علينا أن نعالجها بإيجاز فى هذا الكتيب « قصة الاضطهاد الدينى » استيفاء للفكرة التى عالجناها بالتفصيل فى كتابنا عن النزاع بين الدين والفلسفة . على أنا نأمل أن يلاحظ القارىء الكريم أن حديثنا عن علاقة هذا الكتيب بكتابنا عن النزاع ، ليس تلخيصا للأفكار التى تضمنها كلا الكتابين ، وإنما هو مجرد إشارة عابرة إلى العلاقة التى تربط بينهما والاتجاه الذى يمضى فيه كل منهما .

وقد أضاءت دراساتى السالفة موضوع الاضطهاد الدينى ، ولكنى أدركت عند علاجه أن له جانبا تاريخيا محضا ، وانتزاع فكرة من جوها التاريخى يقتضى

الإلمام الكامل بعلاقاتها بالعصر الذى تعيش فيه، ومن أجل هذا آثرت أن أرجع فيما يبدو مثارا للظنة فى المجال التاريخى إلى أحد زملائى المتخصصين فى دراسة التاريخ، عسى أن آمن بهذا زلل الحكم المبتسر أو النزوع الى الجور على حقائق التاريخ ، ولهذا أطلعت زميلى الدكتور محمد مصطفى صفوت أستاذ التاريخ المساعد بجامعة فاروق على بعض فصول الكتاب ، وتفضل مشكورا بإبداء بضع ملاحظات قيمة .

فلنمهد لدراسة موضوعنا بكلمة خاطفة رفيقة نتناول فيها الحديث عن قوانين الإيمان والاضطهاد والفداء والاستشهاد وما إليه بسبيل:

من قوانين الايمان

ذهب جمهرة الباحثين فى طبيعة المعتقدات وخواصها إلى القول بأن الإيمان يخضع لناموسين : أولهما يقول إن الإيمان بحكم الضرورة لايحتمل التسامح ، بل إن عدم التسامح يتمشى طرديا مع قوة الإيمان عكسيا مع ضعفه ! والإيمان متى احتل قلوب الناس قل اصطبارهم على من ليسوا على دينهم ، بله الخارجين على تعاليمه وهذه سنة قيل إن تاريخ الاضطهاد الدينى قد سجلها منذ أقدم العصور .

وثانى الناموسين يقول : متى قوى نفوذ طائفة من المؤمنين فى شعب من الشعوب نزعت إلى الاستبداد بسائر الطبقات ، وجنحت إلى قتال من لا يذعن لسلطانها ويستجيب لتعاليمها ، ويقال إن استقراء التاريخ يؤكد القول بأن الرحمة لاتعرف طريقها إلى قلوب طوائف المؤمنين !

براءة الأديان من تبعات الاضطهاد

وحسبنا من التعليق على هذين الناموسين أن نقول : إن الأصل فى الأديان أنها رسالة الحب إلى النزاعين للحقد والبغضاء ، ودعوة السلام إلى التواقين للقتال الراغبين فى إهراق الدماء ، ونداء الرحمة والتسامح إلى المشائين بالقسوة والانتقام وإذا كانت المسيحية قد فاقت الأديان كلها فى إكراه الناس على اعتناقها ، فقد ارتكبت فظائعها باسم المسيح الذى يقول لمريديه فى خطبته على الجبل : سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات . (١)

ومن هنا كان مرد الفظائع التى تنسب إلى المسيحية زورا ، إلى تزمت الجهال من أتباعها فى الغرب ، أما المستنيرون من ذوى الصدور الرحبة من أهلها فى الشرق والغرب على السواء ، فقد ملأ الإيمان السمح صدورهم ، وشاع نوره فى نفوسهم فبرئت ساحتهم من آثار التعصب البغيض وكانوا عنوان الحب الذى نزلت المسيحية مبشرة به .

والقول بأن الإسلام قد انتشر بالسيف ينطوى على بهتان عظيم ، فما دعى الإسلام للقتال إلا ردا لفتنة المؤمنين عن دينهم ، لأن الفتنة أكبر من

(١) انجيل متى الاصحاح الخامس ، وسنورد بقية هذه الآيات في نهاية الفصل الذى سنعقده عن اضطهاد البروتستانت ، لنرى التباين الملحوظ بين طبيعة المسيحية و تصرفات المتزمتين من رجالها .

القتل ـ على ما سنعرف عند الحديث على الاضطهاد فى الإسلام ؛ وقد نزل القرآن الكريم داعيا للحب مبشرا بالتسامح منفرا من إكراه الناس على اعتناق الإسلام بقوله تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وليس لأحد من رجال دينه على أحد سلطانا ، بل ليس رسول الله إلا مجرد مذكر ومبلغ « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر (١) » .. إلى آخر ما سنعرفه فى الفصل الذى سنعقده على الاضطهاد فى الإسلام .

امكان الجمع بين الإيمان والتسامح

وما من شك فى أن تاريخ الأديان قد عرف آلاف المؤمنين الذين صدق إيمانهم واتسعت صدورهم لآراء خصومهم ، وبرئت نفوسهم من أدران الحقد على من خالفهم فى أمر عقيدتهم، هذه ظاهرة سجلها تاريخ الأديان وأكدها الاستقراء فى كل زمان ومكان .

فالإيمان لا يستلزم التعصب ولا يقتضى التزمت إلا عند من صدئت قلوبهم وأظلم الجهل عقولهم ، وأكلت الإحن والأحقاد صدورهم ؛ وإذا نزل الإيمان السمح بالقلب السليم ملأه صفاء وبدل غيابته نورا . فالتعصب يلازم الإيمان فى العصور التى يعتريها الركود العقلى ، ويزايله حين يمحى الجمود باستنارة العقل ، إذ تتسع جوانب النفس وتصفو القلوب ، ويجتمع فى المؤمن وحى القلب

(١) انظر محمد عبده : رسالة التوحيد ص ٢١٧١ ـ ١٩١ طبعة سادسة وفى كتابه عن الاسلام والنصرانية ص٦٧ـ٦٨ طبعة اولى .

ومنطق العقل من غير أدنى تعارض .

ومن هذا كله نرى خطأ الزعم القائل بأن الإيمان لا يحتمل التسامح ، ولعل الأصح أن يقال إن الإيمان والتسامح لا تربط بينهما علاقة تضاد أو تناقض تمنع اجتماعهما معا ، إنما تقوم علاقة التضاد بين التعصب والتسامح ، واجتماع الضدين عند المناطقة محال .

ضرورة الابقاء على الايمان

على أن نتائج التعصب المتزمت - بالغا ما بلغت فظاعتها - لا تبرر نزوع أحرار الفكر إلى القضاء على الإيمان فى كل صوره ، لأن الإنسان بطبيعته لا يستطيع - بالغا ما بلغ احترامه لشريعة العقل - أن يحيا فارغ القلب ، وليس الإلحاد الصادق فى كل صوره الا إيمانا انحرف عن طريقه المرسوم ! ومن هنا قال الملحدون الذين أرخوا ظاهرة التدين عند الناس : لا يموت فى قلب الإنسان إله حتى يحتل مكانه إله آخر .. !

ناهيك بما يترتب على الإيمان من وجوه النفع المادى والأدبى على السواء ، إن الإيمان يشيع الطمأنينة فى النفس ويملأ شعابها غبطة وروحا ، وهذه الطمأنينة زاد لا يستغنى عنه إنسان ، وهذا بالإضافة إلى ما يترتب على الإيمان من نفع مادى يعبر عنه فولتير بقوله : إذا لم يكن الله موجودا لوجب اختراعه ، يجب أن نؤمن بالله حتى تكون زوجتى أكثر وفاء لى ، وخادمى أقل

رغبة فى السرقة ..! وهو رأى أعرق فى القدم من فولتير ، بصرف النظر عن تدين أصحابه أو إلحادهم .

لا يملك العدالة متعصب ذو نفوذ

أما ثانى الناموسين اللذين أسلفنا ذكرهما فى مستهل هذا الحديث ، فإنا نلاحظ على منطوقه ما لاحظناه على الناموس السالف ، ذلك أنه يستخدم الإيمان مكان التعصب ، لأن المؤمن متى صح إيمانه أمكنه أن يجمع بين العدالة والنفوذ ، بل إن الإيمان الصحيح يقى صاحبه شر الجور والظلم ويبعد عنه النزوع إلى البغى والعدوان ، إنما يقع التنافر بين العدالة والتعصب ، وتنتفى العدالة متى استقام التزمت ، فان اقترن التزمت بالنفوذ وقع الاضطهاد لا محالة .

وإذا كان من الحق أن يقال إن المؤمن قد يجمع بين السلطة والعدالة فيكون صاحب نفوذ ولا يكون ظلوما ، فان من العسير أن يصدق هذا الحكم إذا تجاوزنا الأفراد إلى الطبقات والطوائف ، ومن هنا كان الخطر فى استحواذ أهل التزمت من رجال الدين على سلطة زمنية تمكنهم من إيذاء خصومهم . وإذا كان من خصائص الإيمان المتزمت أن يجزع أهله من كل مذهب يخالف عقيدتهم ويميلوا إلى التنكيل بصاحبه ، وجب أن يجرد غلاة المتعصبين منهم من كل سلطة تيسر لهم أسباب الاضطهاد ، وبهذا يبقى للإيمان جلاله مع تلافى مايحتمل أن ينجم عنه من سوء .

من خصائص الغلو فى الإيمان

إن الإيمان الصادق يستبد بهوى أهله ويدفعهم إلى التفانى فى نصرته والاستشهاد فى سبيله والغبطة تشيع فى نفوسهم طولا وعرضا ! إنه يخدر أعصابهم ويفقدهم الإحساس بآلام العذاب ! عند المثل الأعلى للمؤمن الصادق تلتقى اتجاهات عقله وتيارات قلبه ، فيهون فى سبيل مبدئه المال والجاه وكل غرض من أغراض الحياة يمكن أن يستثير جمهرة الناس ويستبد بمشاعرهم ، ومن ثم تكون الشجاعة النادرة والجرأة الملحوظة والاستخفاف بالموت ، فيبدو الإيمان وكأنه عطل الكثير من الغرائز والميول الفطرية عن أداء وظيفتها ، فسرعان ماتهون فى النفس الأثرة والملكية والمحافظة على البقاء وغيرها ، ويصبح الإنسان أسير مبدئه ! ومن أجل هذا كله قيل إن الإيمان يزحزح الجبال ، لأنه يقوى على مايعجز عنه العقل والتروى والتبصر وما إليه بسبيل .

وأطرف نتائج الفداء أنه يكفل لأصحابه الغلبة بالخلود ، وإن سجل التاريخ المادى انتصار خصومهم فى ظاهر الأمر !

وخصائص الغلو فى الإيمان - من تعطل الغرائز عن أداء وظيفتها ، والاستخفاف بالموت والعذاب ، والتفانى فى نصرة المطلب عن غير وعى أو شعور والثقة البالغة بالنفس ، والشجاعة النادرة فى الدفاع عن المبدأ ، وتحول الألم الممض فى سبيل ذلك إلى غبطة بالغة ، والإيثار ويقظة الضمير وغير هذا من خصائص ، إنما يبدو فى كل حالات الإيمان الصادق ، وسيأتى بعد هذا أن

يكون موضوع الإيمان دينا منزلا له حرمته وقداسته ، أو يكون عقيدة يعتقد أصحابها أنها دين منزل ، أو يعلمون أنها مجرد فكرة من وضع البشر غاصت إلى مجال اللاوعى واستحالت عقيدة يؤمن بها الأتباع .فلنعرض بضع نماذج للتعبير عن هذه الخصائص ، وليعذرنا القارىء إن أطلنا فى ذكر هذه الشواهد ، فإنما نريد بالإكثار منها أن ننقله إلى جو هذا الكتاب ، وإذا كان بعضها لا يمثل الاضطهاد الديني ، فانها صور حية للتعبير عن الفداء والإيمان والاستشهاد في سبيل المبدأ :

من شهداء الاسلام

ملأ نور الإسلام قلوب أتباعه فحملهم الإيمان به على جناحه وانطلق بهم إلى حيث مكنهم فى فترة وجيزة من الزمن من تقويض أعظم دولتين عرفهما تاريخ العصور الوسطى : هما البيزنطية والفارسية ! ومن أظهر نماذج الاستشهاد فى تاريخه ما وقع فى غزوة مؤتة ، إذ اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام ووجه إليها ثلاثة آلاف لمقاتلة أعداء الإسلام ، وكان اللواء لزيد بن حارثة فإن أصيب فلجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فلعبد الله بن رواحه ، فحمل زيد راية النبي ، واندفع بها فى صدر العدو وهو موقن أن ليس من موته مفر ، لكن الموت فى هذا المقام هو الاستشهاد فى سبيل الله ، وليس الاستشهاد دون النصر والظفر مكانا ، وحارب زيد حرب المستميت حتى مزقته رماح العدو ، فتناول الراية من يده جعفر بن أبي طالب ، وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين من عمره ،

وهو شاب تعدل وسامته شجاعته ، وقاتل جعفر بالراية حتى إذا أحاط العدو بفرسه اقتحم عنها فعقرها ، واندفع بنفسه وسط القوم منطلقا انطلاقة السهم يهوى سيفه برءوسهم حيثما وقع ، وكان اللواء بيمين جعفر فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل ! ! يقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة قطعته نصفين ! قلما قتل جعفر أخذ بن رواحه الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه » ، ومضى للقتال بعد تردد حتى استشهد (١) .

من شهداء المسيحية الشرقية

وإذا كانت طبيعة الغلو فى الإيمان واحدة ، تشابهت نتائجه وآثاره مع اختلاف الحالات ، وحسبنا فى التدليل على هذا أن نورد الشواهد عليه فى المسيحية وغيرها :

انتشر الاضطهاد الدينى فى مصر قبيل الفتح العربى ، وفكر « هرقل » بعد انتصاره على الفرس فى أن يوحد المذاهب المسيحية كلها ويصبها فى مذهب واحد ، وأقر هذا المذهب الموحد مجمع «خلقيدونية» وتولى بطرقة الدين فى الاسكندرية « قيرس » الذى أخفق فى إقناع المصريين بالمذهب الجديد ، فوطن العزم على إكراههم على اعتناقه ! وكان كبير أساقفة القبط فى مصر هو « بنيامين » الذى كان موضع حب المصريين ومثار احترامهم ، وكان شديد التعصب لمذهب

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٣٩٣ .

اليعاقبة الذى يقول « إن الطبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا فى المسيح وصارتا فيه طبيعة واحدة ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين أما بعده فصار ذا طبيعة واحدة وهو يخالف مذهب الملكانية الذى يقول : إن الابن مولود من الآب قبل الدهور غير مخلوق ، وهو جوهره ونوره ، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا هو المسيح » وعندما أخفق قيرس فى إقناع الأقباط بالحسنى لج فى البطش والاضطهاد عشر سنوات حسوما (١) .

وكان أخو بنيامين ممن عذبوا كثيرا ، اذ أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه ، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه الى الأرض . ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه ، فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل وحمل فى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطىء ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقر مجلس « خلقيدونية » ، فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض فى كل مرة ، فرموا به فى البحر فمات غرقا ! » .

وقد تميز قيرس غيظا حين أقبل على الدير فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه ، ولما جلده قال له إن صمويل الزاهد قد خطب فى رهبان الدير ووصفه بالكفر وعدم الإيمان بالله حتى فر الرهبان قبل مقدمه ! ولما ذهب قيرس دعا الإخوان إلى ديرهم آمنين ، وأما البطريق « المقوقس » فقد مضى إلى الفيوم ودعا أتباعه وأمرهم بأن يجيئوه بذلك العابد « الأباصمويل » مكتوف اليدين من

---

(١) ميخائيل : الفاروق عمر ج ٢ ص ٧٦–٧٨ .

خلاف ، وأن يضعوا فى عنقه طوقا من الحديد ، وأن يدفعوا به كما يدفع اللصوص» فجاءوا به من الدير الذى كان فيه وذهب صمويل مستبشرا فى صحبة الله وهو يقول « سأمنح إن شاء الله اليوم الشهـــادة بأن يسفك دمى فى سبيل المسيح » وأخذ يسب المقوقس دون أن يخشى شيئا ، فلما دخل عليه أمر المقوقس جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ، ثم قال له « صمويل أيها الزاهد الشقى منذا أقامك رئيسا للدير وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبونى ومذهبى ؟ فقـال له العابد : إن البر فى طاعة الله وطاعة وليه البطريق « بنيامين » وليس فى طاعتك والدخول فى مذهبك الشيطانى ـ يا سـلالة الطاغوت ويا أيهـا المسيح الدجال » فأمر قيرس جنوده أن يضربوه على فمه وراح يتوعده ، فقال له صمويل « لقد كان إبليس من قبل كبيرا على الملائكة ولـكن كبره وكفره فسقا به عن أمر ربه ، وهكذا أنت أيها الخادع الخلقيدونى ، فـإن مذهبك مذموم وإنـك أشد لعنة من الشيطان وجنوده » !

وبمثل هذه الجرأة والشجاعة الأدبية النادرة ، كان صمويل يخاطب صاحب الحول والطول فى البلاد (١) !

من شهداء البروتستانت

وفى حركة الإصلاح الدينى فى أوربا اتقد أتباع المذهب البروتستانتى حماسة

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ترجمة الاستاذ الجليل محمد فريد ابو حـديد بك ص ١٦٣ ـ ٦٥ طبعة ١٩٣٣ م .

لنصرة مبدئهم ، واضطرموا تعصبا له وتمسكا به ، وكانوا ينزفون حقدا على خصومهم ورغبة فى التنكيل بهم - وسنعرف من آثار هذا الشيء الكثير ، وقد تفانوا فى الدفاع عن مذهبهم الذى آمنوا به ، أفقدهم الإيمان الشعور بالألم حتى كانوا يتقدمون إلى مواقد النار التى أقامها الكاثوليك لإحراقهم والغبطة تشيع فى نفوسهم ، ويتجهون إلى نصح من حولهم للعدول عن الكثلكة واعتناق البروتستانتية دينا ! حتى رأى أولوا الأمر أن ينتزعوا - قبيل إحراقهم - ألسنتهم من أفواههم ، اتقاء لسحر تأثيرهم - ! وبمثل هذه الروح كابدوا آلام الحروب الدامية وعناء المذابح المروعة ، يهزهم الحنين إلى ربهم مستشهدين فى سبيل دينهم ، حتى قدر لمذهبهم أن ينتصر ، وكتبت له السيادة فى بعض الأمم (١) .

وهكذا يؤدى الغلو فى الإيمان إلى الاستخفاف بالألم والعذاب والموت ، والإقبال على الاستشهاد فى فيض من الغبطة والرضا ، وليس ينفى هذا أن يهدف

---

(١) وقد عانى اليهود الكثير من ضروب الاضطهاد المرير الدامي طوال تاريخهم ، واستشهد الكثيرون منهم من أجل دينهم . وحسبنا من مظاهر استخفافهم بالموت ماوقع فى وقعة قريظة ، اذ اشتد حصار المسلمين لهم فاختاروا سعد بن معاذ الانصارى حكما بينهم وبين خصومهم ، فأمر بأن تقتل المقاتلة منهم وتقسم الاموال ... فقدم حيي ابن اخطب لتضرب عنقه ، فقال له النبي . «ألم يخزك الله ياحيي فأجابه حيي : كل نفس ذائقة الموت ولي أجل لا أعدوه ، ولا لوم نفسى على عداوتك ثم التفت الي الناس وقال : ايها الناس انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني اسرائيل»

وسعي ثابت ابن قيس عند رسول الله يستوهبه دم الزبير ابن باطا القرظى ، وأجاب رسول الله طلبته ، ولكن الزبير حين علم بالامر قال : «شيخ كبير مثلي ، لا أهل ولا ولد له ، ماذا يصنع بالحياة ! » ثم سأل عن زعماء بني قريظة فعلم انهم قتلوا ، فقال « اني اسألك ياثابت بيدي عندك =

الاستشهاد إلى غير النعيم الأخروى ، وإذا كانت النماذج التى أسلفناها تفسر هذه الظاهرة فى المؤمنين بالأديان المنزلة ، فلدينا الكثير مما يشبهها من وجوه الاستشهاد فى سبيل مبادىء لم ينزل بها وحى ، ومرد التشابه فى هذا الصدد إلى أن طبيعة الغلو فى الإيمان واحدة ، بصرف النظر عن موضوعه ومجاله :

من قبلى قريش

وقد وقع لقريش فى غزوة أحد مثل ما وقع للمؤمنين من المسلمين فى وقعة مؤتة - على ما روينا منذ حين ، فكان لواؤهم لا يسقط من يد حتى يتقدم من يحمله ، قتل على طلحة بن أبى طلحة ، فحمل عثمان بن أبى طلحة اللواء ، فلما لقى مصرعه على يد حمزه تقدم لحمله أبو سعد بن أبى طلحة ، وصاح يقول للمسلمين: « أتزعمون أن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار ؟ والله إنكم لتكذبون ، ولو كنتم تؤمنون بما تقولون حقا فليتقدم منكم من يقاتلنى . وضربه على أو سعد بن وقاص بسيفه ضربة فلقت هامته ، وتعاقب حملة اللواء من بنى عبد الدار حتى قتل منهم تسعة ، كان آخرهم صؤاب الحبشى غلام بنى عبد الدار ، وقد ضربه قزمان بالسيف على يده اليمنى فتناول اللواء باليسرى . فقطعها قزمان بسيفه ، فضم صؤاب اللواء بذراعيه إلى صدره حتى حنى عليه ظهره وهو يقول : يا بنى

= ألا ألحقنى بالقوم ، فوالله مالى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فتلة دلو ناضح (أى مقدار هوى الدلو فى البئر) حتى ألقى الأحبة » وبهذا هانت الحياة عنده ، فضربت عنقه بمشيئته .

عبد الدار هل أعذرت ؟ ! » (١)

من شهداء البابية

أنشأ هذه الديانة السيد على محمد الشيرازى حين اعتبر نفسه باب العلم بالحقيقة الإلهية ، فى عام ١٨٤٤م (٢) ، واعتنق عقيدته الكثيرون فى بلاد الفرس وآمنوا برسالته ، وقد كانت هذه الفرقة دينية ولقيت الكثير من ضروب الاضطهاد الدامى .

بدأت الحكومة بإعدام زعيم البابية لخروجه على مذهب الجماعة ، وكبلت بالحبال مريديه من نساء ورجال وأطفال ، وجردت أجسامهم من الثياب وأحدثت فى جسم كل منهم جرحا وضع الجلاد فيه فتيلا ملتهبا ، وانطلق الموكب على هذا النحو فى شوارع طهران وقد اضطرم الجميع حماسة فراحوا ينشدون فى صوت جهورى قائلين : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ومضى الموكب والجنود من خلفه ، فاذا سقط فى الطريق طفل داسه أبواه ومرا به استخفافا ..! وخطر لأحد الجلادين أن يهدد أبا بضرب عنق ولديه على كتفه إذا لم يعدل عن

(١) المصدر السالف ص ٢٨٩ .

(٢) هي مجموعة عقائد مستمدة من مختلف الديانات ، غايتها اصلاح البشر (انظر مادتي باب وبابى للمستشرق هيورت Ch. Huart فى دائرة المعارف الاسلامية ـ وهي الآن البهائية وهى منتشرة فى ايران وامريكا ، ولها فى مصر المحفل الروحاني المركزي ، وله نشاط ملحوظ يبدو في كثرة نشراته وآثاره المؤلفة والمترجمة ، بل في ردوده المتقنة على كل من مس ديانته بسوء في الصحف والمجلات وغيرها . وفي كتاب « مطالع الانوار » ترجمة شوقي افندي ربانى (القاهرة ١٩٤٠) فيض من أمثال الاستشهاد تعبر عما نقصده بخصائص الفداء والتضحية في سبيل الايمان .

اعتناق البابية دينا ، فبادر الرجل بالانطراح على الأرض مستخفـا بوعيده وسارع أكبر الولدين وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، فالتمس من الجلاد أن يبدأ بذبحه ويثنى بأخيه الأصغر ..!

وكان البابى يتقدم إلى سيف الجلاد فاذا بقرت بطنه رفع صوته منشدا : إنا لله وإنا إليه راجعون ! وقد صلب زعيم المذهب مع أحد مريديه على حائط توطئة لإعدامهما ، فسمع الناس المريد يقول لأستاذه : أستاذى : أراض أنت عنى ؟ وأمثال هذه الحوادث فى تاريخ البابية كثيرة وقد فاضت بها كتبهم وسير رجالهم .

وإذا كان الاستشهاد الذى مثلنا له من قريش والبابية قد وقع من أجل عقيدة وضعها أصحابها فى منزلة الأديان الموحى بها ، فقد وقع ما يشبه هذا الاستشهاد فى ثورات يعلم أصحابها يقينا أن مبادئها من صنع البشر . ومرد التشابه فى هذه الألوان من الاستشهاد إلى وحدة طبيعته فى كل ما كان صادرا عن أصل دينى (١) ،

حسبنا هذا من الشواهد التى تشير إلى خصائص الاستشهاد عند أهل الإيمان

---

(١) من اظهر الامثال التي تشهد بصحة مانقول ، مالقيه الدميون والارهابيون المتمردون من طلاب الدنيا في روسيا ، كان الايمان المتزمت يحملهم على جناحه وينطلق بهم الي حيث يسامون العذاب صنوفا والوانا ، راضين بمصيرهم مغتبطين بآلامهم ، من غير ان يغريهم بهذا طمع فى نعيم جنة ، أو خوف من عذاب جحيم !

وقد اعتقد القائمون بالثورة الفرنسية أنهم رسل دين جديد ، وبدت محاكم اليعاقبة فى ابادة الالوف ممن حامت حولهم الريب والظنون ، فتقدم الشهداء الي المقصلة بجنان ثابت وقلب مطمئن واعتلى الجيروندیون درجاتها رافعين أصواتهم بنشيد المارسليز ..!

العميق ، وأظهرها تعطل غرائز المحافظة على البقاء والأثرة وغـــيرها عن أداء وظيفتها ، بالإضافة إلى مايعترى الحس من تخدير يشل عمله ، بل تحول الإحساس بالألم المرير الممض ـ فى وقدة الحماسة وسورة الدفاع عن المبدأ ـ إلى فيض من الغبطة والرضا ! وسيان بعد هذا أن يـكون الاستشهاد من أجل دين منزل أو فـكرة من وضع البشر !

ظمأ الانسان الى اهراق الدم

إن من يتتبع تاريخ الثورات الدينية ، وما وقع إبانها من مـذابح مروعـة وحركات إبادة وقتل وإحراق ، تساوره الدهشة من إقدام الإنسان على ارتكاب مثل هذه الفظائع ، ولـكن البحث فى النفس الثائرة المتمردة قـــد أثبت ظمأ الإنسان إلى قتل غيره من حيوانات وأناسى على السواء ! وإذا كانت الحضارة قد عطلت بزواجرها غرائز الإنسان فى هذا الصدد ، فإنهـا لم تستطع أن تقضى عليها قضاء كاملا ، وإذا كان جمهرة فلاسفة الأخلاق قد ردوا النزوع الى الخير عند الإنسان إلى فطرته ، وغالى بعضهم فوحد بين الخير والجمال ومزق الصلة بين الأخلاق والدين المنزل ، وأبى أن يكون فعل الخير أثرا من آثـار الترغيب فى نعيم الجنة والتخويف من عذاب الجحيم ، ورأى أن الفضيـلة جمـال تهفو اليـه النفوس... (١) إلى آخر ما قيل فى هذا الصدد ، إذا كان هذا هو ما ذهب إليه بعض

---

(١) هذا فى مذهب الحاسة الخلقية Moral Sense بوجه خاص ، وأكبر أتباعه شافتسبرى وهاتشسون .

فلاسفة الأخلاق الذين ينزعون الى تصوير المثل الأعلى للسلوك الإنسانى ، فانه لا ينفى ما قلناه فى كتاب لنا منذ عشر سنوات « .. والمرء إنما يمقت الشر إن عاش بعيدا عنه . ويهلع لارتكاب الخطيئة إذا لم يألفها ، فان أقام فى جوها وتنفس نسماتها أحبها ومال إليها حتى لا يطيق فراقها ولا يحتمل العيش بدونها ! وقد يصبح الشرير محترفا ! يفعل الشر لذاته ويأثم بارتكاب الخطيئة ولا غاية له إلا التمتع بها وإرواء شهوته منها ، والجندى الذى يمضى إلى القتال مضطربا جزعا ويلقى طعنته الأولى خائفا وجلا ، لا يلبث حتى يشتد الظمأ به إلى بقر البطون وإهراق الدماء (١) .

والملحوظ فى تاريخ الثورات فى كل عصورها أن الزواجر حين ترتفع ، ينطلق الإنسان إلى التمشى مع الجانب الحيوانى عنده ويخف إلى الاستجابة لوحى شهواته ، ومن هنا كان تقلب المشاعر فى فترات الثورات والفتن ، بحيث تستحيل الوداعة والرقة والحياء ونحوه إلى صور من الوحشية والخشونة والاستهتار .. وفى تاريخ الثورات والفتن فيض من الشواهد حسبنا منها :

الشغف بالرمم عند نساء قريش

هزمت قريش فى غزوة بدر فناحت نساء قريش على قتلاها شهرا كاملا ، جززن فيه شعر رءوسهن وأخذن أنفسهن بالنواح حول راحلة القتيل أو فرسه

---

(١) انظر كتابنا «قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة» ص ٨٥ طبعة ثانية ١٩٤٦

إلا هندا بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، فانها أبت أن تشاطرهن النحيب ، فلما سألنها : ألا تبكين موت أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ قالت إني أخشى أن يبلغ بكائى محمدا وأصحابه فيشمتوا بنا مع بنات بنى الخزرج ، والله لن أبكى حتى آخذ ثأرى من محمد وأصحابه ، والدهن على حرام حتى نغزو محمدا ! ولبثت لا تقرب الدهن ولا فراش زوجها أبي سفيان - وكان مثلها مغيظا محنقا - وتحرض على القتال حتى كانت وقعة أحد فاستأجرت فيها وحشيا الحبشى لقتل حمزه ابن عبد المطلب عم النبي ، وقتل حمزه وتم النصر فى نهاية المعركة لقريش ، فانطلقت هند مع نساء قريش للتمثيل بجثث القتلى من المسلمين ، وأخذن « يجدعن الآذان والأنوف ، وجعلت هند لنفسها منها قلائد وأقراطا ، ثم إنها بقرت بطن حمزه وجذبت بين يديها كبده وجعلت تلوكها بأسنانها فلا تستطيع أن تسيغها ! وبلغ من شناعة ما فعلت وما فعل النسوة معها بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع ، أن تبرأ أبو سفيان - زوجها - من تبعتها وأعلن أنه لم يأمر به وإن كان قد اشترك فيه » .. (١)

التعطش بالدم فى الثورة الفرنسية

اشتعلت نار الثورة الفرنسية وأقيمت المشانق لإعدام المتهمين بالخيانة العظمى ، ونشطت حركة الإعدام بكثرة ما كان من اتهامات وجهت يمنة

---

(١) انظر هيكل باشا في حياة محمد ص ٢٧٠ و ٢٨٧ - ٨٨ و ١٩٢

ويسارا دون أن يحرص أحد على تحقيق صحتها وتحرى الدقة فى بحثها ، استخفافا بأرواح الناس فى غمرة الثورة المستعرة .

وكانت السيدات الفرنسيات ينطلقن فى كل صباح إلى حيث تقام المشانق رغبة فى التلهى بمنظر القتلى حين تفصل المقصلة رءوسهم عن أجسادهم . . !

وانتدب المؤتمر - فيمن انتدب - الكاهن لوبون للهيمنة على حركة الثورة فى الأقاليم ، فأقام المقصلة بحيث تشرف على نوافذ بيته ليتمكن مع زوجه وصحبه من التمتع بمشاهدة مناظرها ، وأقام إلى جوارها مقصفا للنظارة من الثائرين ! وكان الجلاد يلقى بجثث الضحايا فى أوضاع مثيرة للضحك ، وكان « كاريه » يحمل ضحاياه على أن يحفروا قبورهم ليدفنهم فيها أحياءاً ، ويصدر أوامره بقتل النساء والأطفال غرقاً ، ثم يقول إنه لم يضحك من قتل رجال الدين بقدر ما ضحك من منظر وجوههم وهى تتقلص وتنقبض عندما تحين ساعتهم ! (١)

فى محارق محاكم التفتيش

وكانت محاكم التفتيش فى مطاردتها للمارقين ودفعها عدوان الملحدين ، تغريهم بالتوبة والعدول عما أدينو من أجله ، فإن كابروا وأصروا ، أصدرت أحكامها

---

(١) الأمثلة مستقاة من لوبون في كتابه La Revolution et la Psychologie des Revolutions وقد ترجمه الاستاذ محمد عادل زعيتر تحت عنوان « الثورة الفرنسية وروح الثورات »

بمروقهم وتولت السلطات تعذيبهم أو إعدامهم أو إحراقهم . فان أحرقوا كان إحراقهم فى محارق تقام فى ميادين عامة فى المدن الكبيرة وتنظم لهذا احتفالات تشهدها الجماهير والأحبار والملوك أحيانا ، وكانت هذه الاحتفالات أشبه بالأعياد يطرب لها الناس ولا يجدون فى مناظرها ما يدعو إلى الضيق والاشمئزاز !

استعلاء الجانب الحيوانى فى الثورات

نرى مما أسلفنا كيف تتبدل المشاعر إبان الفتن ، ويتحول الإنسان الوديع فى غمار الثورة حيوانا مفترسا يلذ لارتكاب ما كان يفزع من مجرد تصوره ، ويسعى إلى عمل ما كان ينفر منه ويتقزز ؛ وقد قيل إن أكثر الذين ارتكبوا فظائع الثورة الفرنسية - وهى تشبه فى طبيعتها الثورات الدينية - لم يكونوا من المجرمين والسفاكين ، بل كانوا من المستنيرين الذين ظن البعض أن التعليم هذب طباعهم ورقق مشاعرهم ، وينسحب هذا على أكثر أعضاء الجمعية التشريعية والمؤتمر ، وما يقال عن الثورة الفرنسية ينسحب على الثورات الدينية ، لأن النبع النفسى الذى صدرت عنه واحد.

فى الثورات - ولا سيما الدينى منها - يستعلى الجانب الحيوانى فى نفوس الناس ، وتستيقظ ميولهم الفطرية ويخفت صوت العقل وترتفع الزواجر التى أقامها ومن ثم يبدو الإنسان وحشا ضاريا ، ومن هنا كانت مذابح الاضطهادات الدينية وفظائع حروبها أمرا عاديا مألوفا متى عرفت بواعثه ومقدماته ؛ وإذا

كان علم الأخلاق يضيق بهذه النكسة التي يرتد بها الناس إلى الحيوانية الأولى ، ويأسف لانسياق الناس وراء شهواتهم ، وإيغالهم في الإثم حين يلقون بأنفسهم في عباب الفتن والثورات ، فان علم النفس ليعرف كيف يفسرها في ضوء نواميسه السيكولوجية من غير أن يخضعها لأحكام الشر والخير ، فيمهد بهذا للمؤرخين وعلماء الاجتماع سبل دراستها من غير أن يجدوا فيها ما يثير دهشة أو يبعث أسفا !

حق رجال الدين في دفع الكفر

وإنصافا للإيمان - بما هو إيمان - نقر حق المؤمن المطلق في الدفاع عن عقيدته ، ورجال الدين بحكم إيمانهم من ناحية ، وبحكم وظائفهم من ناحية أخرى ، مطالبون بمقاومة كل فكرة هدامة ترمى إلى تقويض دينهم وزعزعة نفوذهم ، وتهاونهم في أداء هذه المهمة اتهام لشعورهم بأقدس واجب .

وهذا بالإضافة إلى أن المذهب الجديد في أكثر حالاته يهدد سمعتهم وينذر بحق الناس في الاستخفاف بهم ، ويبرر عصيان أتباعهم لهم ، إن سمعتهم لتعلو في نظر الناس بمقدار ما يبدو الحق في جانبهم ، وتتداعى متى ظهر بطلان المبدأ الذي اعتنقوه وروجوا له بين الناس ؛ ومن أجل هذا حرص رجال اللاهوت في روما على أن يعلنوا للعالم أن البابا معصوم من الخطأ ، ولم يجد مجلس الفاتيكان غضاضة في أن يصدر بهذا قرارا منذ نحو ثمانين عاما !

على أن هذا كله لا يبرر الكبح والإكراه وتعذيب الخصوم والتخلص

منهم بالنفى والإحراق والإعدام ، ولا سيما وأن الاضطهاد - فى الكثير من حالاته - ينتهى إلى عكس الغاية التى وضع من أجلها ، وهو لا ينتصر فى القضاء على عقيدة إلا يوم تطول عهوده السود ويمتد أمد أزماته الخانقة وحروبه الدامية ومذابحه المروعة ، ومع هذا لا تستحق ثمرته الثمن الباهظ المرهق الذى دفع من أجلها .

قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد

وإذا كان الذين ينزلون الاضطهاد بخصومهم يعتقدون أنهم على حق فهل يحتاج الحق ليستقيم أمره وتثبت قدمه ويطاول الدهر حياة إلى سيف يشد أزره ..؟ ما قيمة العنف فى إقرار الباطل مكان الحق ! قد يكون فى الباطل من وجوه الفتنة والإغراء ما يجذب الناس إلى اعتناقه والتمسك به ، ولكن دولته لا تدوم طويلا .. وإذا تولى السيف حماية الباطل بقى الباطل حينا لا يلبث بعده أن يتداعى وتتكشف حقيقته للعيان ، وقد ينصرف الناس عن الحق متى عميت بصيرتهم وكفوا عن النظر الصحيح ، ولكنه لا يلبث أن يتبدى لمن تهديهم اليه الفطر السليمة ويجتذب اليه الأعوان يتكاثر عديدهم بمرور الأيام ، ويشتد إيمانهم به وتفانيهم فى الدفاع عنه حتى يستقر أمره ويحتل مكانه فى قلوب الناس !

وجانب الحق فى كل دين كفيل بأن يطيل بين الأمم بقاءه .. وليس معنى هذا أن نكف عن دفع الكفر وحماية الدين ، بل حسبنا أن نعمل على نشر

مبادئنا بالإقناع والحسنى وأن نتوخى الحجة فى تأييدها ، فذلك خير وأبقى .. ثم لماذا القهر والكبح والاضطهاد وما اليه بسبيل إذا كان النصر للمذهب الصحيح والبقاء للحق الوضاح ؟

ما أجمل المبادىء الإنسانية التى بشرت بها الأديان ودعا اليها رواد النزعات الإنسانية الصادقة من أهل التصوف والفلسفة ودعاة الإصلاح السلمى والمقاومة السلبية من أمثال غاندى وتولستوى . أليس أكرم للنفس أن نبغض الشر ونحب الأشرار لأنهم إخوتنا فى الإنسانية قد ضلوا سواء السبيل ، ان ضلالهم أحرى بأن يثير إشفاقنا ورحمتنا من أن يثير غضبنا وحقدنا ، إن إصرار الشرير على الاستمساك بنزعاته الشريره أخلق بأن يثير الرثاء له من أن يثير الرغبة فى إباداته واستئصال شأفته ... ولكن هيهات لطبائع البشر الحيوانية أن تستجيب لمثل الإنسانية الحسنى ..

الاضطهاد عدوانه على حرية الضمير

والإنسانية لم تكسب من وراء جهادها الطويل المرير ماهو أعز عليها وأكرم عندها من حرية الضمير ، لقد عبر العالم إلى هذه الحرية فى كل مجالاتها بحيرات من دماء الآلاف من شهدائه ، وأفنى فى سبيلها الكثير من جهده ووقته وماله وسائر موارده المادية والروحية معا . وأصبحت أظهر السمات التى تميز الإنسان من سائر الحيوانات ! لأن جهاد الإنسان التماسا لتوفير ما تتطلبه حياته من ضرورات القوت وما إليه بسبيل ، ظاهرة تشارك فيها الحيوانات بكافة

صنوفها ، والإنسان وحده هو الذى يمكن أن يرتفع عن ضرورات العيش ومطالب الدنيا ويتسامى إلى تحقيق ما تكمل به نفسه من ألوان الحريات .

ولكن هؤلاء المتزمتين من غلاة المتعصبين يتكفلون بمسلكهم الباغى إزاء خصومهم ، بأن يقوضوا هذه الحرية ويضيعوا على الناس ثمرة هذا الجهاد الطويل .. فوق أنهم يسيئون بمسلكهم إلى عقائدهم أكثر مما يسىء إليها المارقون ...!

على أن ما سنراه فى فصول هذا الكتاب من معارك دامية بين المثل العليا والمطالب الدنيا ، قد كتب فيها النصر المؤزر للشهداء فى سجل الخالدين ، والاندحار المحقق لأصحاب المطامع والمنافع - وإن بدا الأمر عند أهل النظرة السطحية العاجلة على غير ما نقول . إن المبادىء الإنسانية - فى مطلع حياتها بوجه خاص - تعيش على أشلاء الشهداء وتروى من دماء أهل الفداء ؟

الاسكندرية فى ربيع الثانى ١٣٦٦ هـ
مارس ١٩٤٧ م

توفيق الطويل

— ٢ —

اضطهاد المسيحية

أسباب اضطهادها — اضطهاد نيرون للمسيحية — حركة الاضطهاد فى القرن الثانى — دفاع المسيحيين عن دينهم — بغض هؤلاء المدافعين للحضارة الرومانية — القرن الثالث بين الاضطهاد والتسامح — اضطهاد المسيحيين فى عهد دقلديانوس — انتصار المسيحية على هذا الاضطهاد — تبرير اضطهاد الرومان للمسيحية — التسامح وبدء نفوذ الكنيسة في روما .

أسباب اضطهادها

خرجت السياسة الرومانية على شريعتها فى إطلاق الحرية الدينية لرعاياها ، وضنت بالتسامح على الدين المسيحى الجديد منذ ظهوره ، ونهضت لمقاومته واضطهاد أتباعه ، فكان هذا بدء الاضطهاد الدينى فى أوروبا (١) . ومرجع هذا الاضطهاد إلى أن الأباطرة كانوا لا يعرفون من أمر الدين الجديد إلا أنه امتداد لليهودية ، وكانت هذه موضع كراهية من الوثنيين المتسامحين ، على غير ما جرى العرف فى إباحة الحرية الدينية للناس ، لأنها أثارت بتعصبها الحقد فى القلوب ، ولكن الأباطرة كانوا يقومون بحماية أهلها من ضراوة هذا الحقد ، حتى إذا أحسوا بأنها ستبدو فى ثوب جديد من المسيحية ، وتجذب كثرة من الأنصار الجدد ، يشيعون تعصبها ، ويثيرون حقد الناس عليها ،

---

(١) أنظر بيوري J. B. Bury في كتابه A History of Freedom of thought وقد استقينا منه كثيرا من معلوماتنا عن الاضطهاد الذى نزل بالمسيحية في قرونها الاولى .

أخـــذوا فى مقاومة تعاليمها واضطهاد أتباعها ، وبدأت حركة الاضهاد على يد دوميشيان +٩٦ Domitian .

اضطهاد نيرون للمسيحية

ويقال إن تاريخ المسيحية قد سجل أول مظاهر الاضطهاد الدامى فى عام ٦٤ من ميلاد المسيح ، فى عهد الطاغية الظلوم « نيرون » ٦٨ (١) إذ قيل إنه أمر بإحراق روما ليستمتع بمرآها ، ولبثت النار تضطرم فى المدينة وتأتى على من فيها ستة أيام كاملة . واتقد الشعب غضبا خشى الطاغية مغبته ، فألقى تبعة إحراقها على عاتق المسيحيين . فاضطرم الشعب هياجا وحقداً ، وكابدالمسيحيون من جراء هذا عنتا شديداً ؛ لبس بعضهم جلود الوحوش وألقى إلى الكلاب تنهش جسمه ، وطليت أجسام بعضهم بالقار والشمع وغيره مما يقبل الالتهاب ، ثم أشعلت النار فيهم أحياء .. ! بل أقيمت حفلة ألعاب فى بستان هذا الطاغية ، وكان هؤلاء الضحايا المصابيح التى تضيء هذا الملعب ! (٢)

---

(١) B. W. Henderson, The Life & Principate of the Emperor Nero, London 1903

(٢) ولكن هذا الرجل قد اشتهر فى التاريخ بشذوذه ، وناهيك بمن يقتل زوجه ويغرق سفينة تحمل أمه ، فاذا نجت الأم أمر بها فذبحت .! فمسلكه ازاء المسيحية لا يمثل سياسة الاباطرة حيالها — وموقفه فى المسيحية فى هذه الفترة من الزمن يذكرنا بموقف الحاكم بأمر الله ١٠٢١ م في الاسلام ، فقد طارد الذميين من اليهود والنصارى ، وتولاهم بالقتل اوالتعذيب ، وهدم كنائسهم وألغي أعيادهم ، وحقر من شأنهم أمام المسلمين ، وأوقع بهم حتى نزح الكثيرون منهم فرارا ، ولكن مسلكه ازاءهم لايمثل سياسة الحكام فى مصر الفاطمية نحوهم فالمعروف أن الدولة الفاطمية كانت تجري على سياسة التسامح مع الذميين ، وأن الحاكم بأمر الله لم يقصر اضطهاده على الذميين ، بل كثيرا ما أوقع بالمقربين من رجاله المسلمين ، وهذا =

حركة الاضطهاد فى القرن الثانى

وحين تولى الحكم « تراجان » + ١١٧ كان اعتناق المسيحية جريمة عقابها الإعدام ، ومع أن القوانين كانت لا تقوم بحماية الدين المسيحى ، فان الأباطرة كانوا يميلون إلى استئصاله من غير أن يريقوا دما . . !! وقد قرر « تراجان » ألا يتعقب المسيحيين المستنيرين ، وألا يحفل باتهام أحد لهم باعتناق هذا الدين الجديد ، ما لم يقم صاحب الاتهام الدليل على صحة اتهامه ، فإن أعوزه التدليل على ذلك ، عرض نفسه للعقاب ! .

ولكن الشعب كان تواقا لاضطهاد الدين الجديد والتنكيل بأتباعه ، ومن هنا كانت الاضطهادات الدامية التى عرفها هذا القرن - الثانى لميلاد المسيح - وأظهرها ما وقع بين سنتى ١٦١ - ١٧٤ وبين سنتى ١٧٧ - ١٨١ ، وكان التعصب الدينى الأعمى يضطرم فى نفوس الناس ، فكان الوثنيون إذا رأوا مسيحيا لاذوا فراراً ، مخافة أن يمسهم دنسه ! ومن هنا كان حرمان المسيحيين من دخول الحمامات وغيرها من المحال العامة ! وامتد هذا إلى تعذيبهم فى غير رفق ولا رحمة ، فكانوا كثيراً ما يلقون إلى الوحوش الضارية تفترسهم فى مدرج عام ، يضم خصومهم الذين يحضرون للتلهى بمشاهدة هذه المناظر . . !

دفاع المسيحيين عن دينهم

وقد أفضى هذا الاضطهاد البشع إلى اضطلاع المستنيرين من المسيحيين

= فضلا عن شذوذه الذي أدى به الي أن يؤله نفسه ويعطل بعض شعائر الاسلام ويسب أبا بكر وعمر وغيرهما من السلف الصالح ، ويذيع ذلك فى المساجد . ! واذا كان قد عدل عن ذلك فالمعروف عنه أنه قد عاد في أواخر أيامه الى انصاف الذميين واطلاق الحرية لهم والترفق في معاملتهم .

بالدفاع عن دينهم ، ورد التهم التى توجه إليهم ، فكتبوا للأباطرة والمثقفين « دفاعات » هاجموا فيها المعتقدات الوثنية ، وشادوا فيها بالعقيدة والأخلاق المسيحية . وحسبنا أن نشير إلى ثلاثة من هؤلاء المدافعين أو المحتجين ، لنتبين من هذه الإشارة شيئا عن موقفهم وروح عصرهم ، وهـــؤلاء هم القديس جوستين + ١٦٧ م واثناغوراس وتاتيان المولود فى عام ١٢٠ م :

فأما أولهم فقد تخلى عن وثنيته واعتنق النصرانية دينا ، وأخذ يبشر بتعاليمها مخاطبة ومناقشة على ما كان مألوفا فى عهده ، وقصد إلى روما ، وأنشأ بها مدرسة لبث يعلم فيها حتى استشهد مع ستة من تلامذته . . وقد روى فى أحد كتبه أن فيلسوفا من الكلبيين كان يناقشه ويجادله فى حلقات علنية ، ويحمل عليه على مشهد من الجمهور ، وأنه كان يتوقع أن يبلغ أمره إلى الحاكم ! فلعل هذا الفيلسوف هو الذى سعى به حتى قتل مع تلامذته . . !

وقد وضع أثناء مقامه فى روما ، فى الخمسة عشر عاما الأخيرة من حياته ، ثلاثة كتب هى خلاصة تفكيره وتعليمه ، وهى احتجاج مرفوع إلى الامبراطور أنطونان وولديه - وكان أحدهما ماركوس أورليوس - ومجلس الشيوخ والشعب الرومانى ، وقد أبان فى مطلعه الغرض من كتابته ، وهو إبراء ذمته بإنارة أولى الأمر وتحميلهم تبعة تقتيل المسيحيين ، ثم يحتج على الاضطهاد لأن الحكام يقيمون الدعوى على المسيحيين لمجرد أنهم مسيحيون ، لا لأنهم اقترفوا ذنبا يعاقب عليه القانون ! وقد وضع الكتاب الثانى بعد الأول بزمن وجيز ، بمناسبة استشهاد فريق من المسيحيين لأجل دينهم ! ويكرر احتجاجه ويسهب فى بعض النقط التى أوجز فيها من قبل - وفى ثالث كتبه « حوار مع تريفون » يحكى فيه تاريخ ثقافته الفلسفية واعتناقه المسيحية مع عرض الايمان

المسيحى من جديد .

أما القديس أثناغوراس فقد وضع « التماس من الفليسوف المسيحى أثناغوراس الاثينى لأجل المسيحيين » ورفعه إلى الامبراطور ماركوس أورليوس وابنه عام ١٧٧ م وطلب فيه الوفاق مع الامبراطورية - كما حاول ذلك جوستين - ويصرح بأن إغلاظ القول لا يؤدى إلى غير زيادة الحقد ... إلى آخر ما ذهب إليه .

بغضهم هؤلاء المدافعين للحضارة الرومانية

وإذا كان هذان القديسان يميلان إلى الترفق فى الحديث ، فقد كان القديس « تاتيان » يضطرم بغضاً للحضارة اليونانية ، وقد اعتنق المسيحية وقصد إلى روما وتتلمذ لجوستين ، وبعد استشهاد أستاذه غادر روما إلى الشرق ، وانتقل من السنه إلى الغنوسية ، وأنشأ مدرسة يعلم بها وكتب « خطابه إلى اليونان » أى إلى الأمم غير المسيحية وفيه يقول « عرفت فى حداثتى الفلسفات والأسرار الوثنية ، طوفت فى كثير من البلدان ، وعلمت مذاهبكم ووقفت على كثير من المؤلفات والمكتشفات ، ولكنى اشمأززت مما رأيت فى الوثنية من شعائر مخجلة ، ووضعت يدى بين كتب - هى الكتب المقدسة - أقوم من مذاهب اليونان وأسمى من أن تقارن بأباطيلهم ، قرأتها فحملنى على الإيمان بها بساطة أسلوبها ووضوح تفسيرها لخلق العالم ، وإنباؤها بالمستقبل ، ومبادؤها العالية وتوحيدها ، كذلك راعتنى أخلاق المسيحيين فانفصلت عن حكمتكم وكنت من أنبه ممثليها ! » .

وكما هاجم الوثنية ، حقر من شأن التراث اليونانى فى مختلف مجالاته ،

فاليونان فى نظره لم يبدعوا شيئاً جديداً فى مجال الفن أو الأدب أو الفلسفة، ولكنهم حاكوا غيرهم، فأخذوا عن موسى وتجاهلوا فضله، وليست فلسفتهم إلا نسيجا من النقائص، ولاطبهم إلا نوعا من السحر، ولا فنهم إلا تمجيداً للدعارة وإفسادا للنفوس ..! والفلاسفة عنده متهمون فى أخلاقهم .. (١) الخ

ومثل هذه الحملة نراها عند ترتليان + ٢٢٠ فهو مع دفاعه عن المسيحية ومهاجمته للاضطهاد، يحمل على الفلسفة ويغلو فى معارضتها، فيقول «إنا بريئون من الذين ابتدعوا مسيحية رواقية أو أفلاطونية أوجدلية، بعد المسيح والانجيل لسنا بحاجة الى شىء»! ويهاجم أخلاق الفلاسفة، ويصرح بأن البدع المسيحية قد نشأت عن الفلسفة . . . الخ (٢)

ومن هذا نرى أن دفاع هؤلاء المسيحيين عن دينهم فى هذه الفترة، كان يقطر تعصباً ويتقد حقداً على الحضارة التى يعيشون فى ظلها، إذ لم يكن من الميسور لهم أن يقبلوا الوثنية ويذعنوا لتعاليمها، ولهذا صرح المؤرخون من أمثال Bury بأن اضطهاد الأباطرة للمسيحيين، قد أدت إليه رغبة هؤلاء الأباطرة فى الانتصار لمبدأ التسامح العام .. !

القرن الثالث بين الاضطهاد والتسامح

وفى مطلع القرن الثالث لميلاد المسيح، تزعم كليمان الاسكندرى + ٢١٧ مدرسة الإسكندرية المسيحية، ولكن الامبراطور الرومانى Septimus

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية للاستاذ يوسف كرم ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ـ ٢٦٧ ـ ٢٦٦ طبعة ثانية.

(٢) للمؤلف نفسه فى تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط سنة ١٩٤٦ ص ١٧

Severus قد أصدر فى عام ٢٠٢ أمرا باضطهاد المسيحيين ، فتوقف كليمان عن التعليم ، وغادر مصر إلى آسيا الصغرى ، وكان من تلامذته أوريجان +٢٤٥ وقد اعتقل أبوه فيمن اعتقل فى غمرة هذا الاضطهاد ، وأراد أن يلحق بأبيه ولكن أمه حالت دون ذلك ، فأرسل إلى أبيه رسالة حارة يغريه فيها بالثبات على مبدئه ، ويحذره من العدول عن رأيه من أجل أسرته . . ! فأعدم أبوه وصودرت أملاكه ..

ثم تزعم أوريجان المدرسة بعد هذه المحنة بعام ، ولكنه جلا عن الإسكندرية وعاد إليها ثلاث مرات ، وفى المرة الأخيرة حظر عليه أسقف الإسكندرية التعليم « لانحرافه عن العقيدة . وأيد الأسقفان التاليان هذا الحظر مع أنهما كانا من تلاميذه ، فرحل إلى فلسطين ، وفيما هو هناك ، شب اضطهاد هائل فى سنة ٢٥٠ فاعتقل وعذب عذابا أليما احتمله بشجاعة فائقة ، ولكن صحته تأثرت تأثرا عميقا ، فتوفى فى مدينة صور ، وكان قد أعلن عن رجوعه عن الآراء التى غيرت السلطة الدينية عليه » (١)

ومع هذا فالرأى عند كبار المؤرخين أن الكنيسة قد استطاعت فى هذا القرن ـ الثالث ـ أن تنظم صفوفها فى جو هادىء آمن ، دون أن تلجأ إلى التستر والتخفى ، فتمكنت المجامع الإكليركية من أن تعقد اجتماعاتها دون أن تخشى تدخلا من السلطات ، ومع هذا يستند المسيحيون إلى وقوع بعض الاضطهادات العنيفة ، ويخترعون أقاصيص يصورون فيها الاستشهاد الرائع فى سبيل الله . !

---

(١) المصدر السالف ص ٢٩٦ ، ٢٧٤ ـ ٧٥

اضطهادهم فى عهد دقلديانوس

وفى عصر دوقلديانوس + ٣٠٥ Diocletian بل بعد بضع سنوات من حكمه ، قرر رئيس العيافين الذين يقومون بفحص أحشاء الحيوان ليستنبطوا منها أنباء المستقبل ، أن الآلهة تضيق بكفر المسيحيين ، وتأبى من أجل هذا أن تكشف عن أنباء الغيب المحجب . . ! وعندئذ نزع دقلديانوس إلى اضطهاد المسيحية وجندلة رجالها ، فأمر بهدم كنائسها وإعدام كتبها المقدسة وآثار آبائها ، وقرر اعتبار المسيحيين مدنسين تسقط حقوقهم المدنية ، وأمر بإلقاء القبض على الكهان وسائر رجال الدين ، وتجريعهم العذاب ألوانا ، وأصدر فى العام التالى أوامره إلى الحكام بتنفيذ هذه التعليمات كلها فى مناطقهم فامتلأت السجون بالمسيحيين ، واستشهد الكثيرون بعد أن مزقت أجسامهم بالسياط والمخالب الحديدية ، أو أحرقت بالنار أو قطعت أرباعا ، أوطرحت للوحوش الضارية أوغير هذا من وجوه التعذيب .

وقد أراد هذا الامبراطور أن يؤلهه فى مصر مسيحيوها ، فأبوا الإذعان لما أراد ، فتولاهم بالسجن والإحراق على نار بطيئة ، وأمعن فى تعذيبهم حتى سمى المسيحون عصره بعصر الشهداء ، وجعلوا بداية حكمه (٢٨٤ م) بدءاً لتقويمهم ، ولكن محاولته لم يقدر لها النجاح ، لأن الإيمان المسيحى كان قد تغلغل فى قلوب الكثيرين ، حتى أضحى الاستشهاد فى سبيله ، مدعاة لراحة الضمير واطمئنان النفس ... بل انصرف الأباطرة عن الاهتمام بمقاومة المسيحيين ، إلى الحملات التى كان يشنها البرابرة على أملاكهم ، فأنساهم هذا النذير الذى يهدد وطنهم ، اضطهاد المسيحية والتنكيل بأتباعها ، بل نزع بعض

الأباطرة إلى اعتناق المسيحية . . ولهذا تخلوا عن سياسة الاضطهاد ، وصدر مرسوم بالتسامح فى عام ٣١١ م وفيه اعتراف بمدى ما فعله الايمان بنفوس هؤلاء الضالين ..! وقلة جدوى التعذيب المروع معهم . . ! وأذن لهم هذا المرسوم باعتناق معتقداتهم ، وأباح لهم حرية الاجتماع دون مخافة أو إزعاج ، على أن تكون قوانين البلاد وحكومتها موضع احترام منهم وتقدير .

انتصار المسيحية على هذا الاضطهاد

ومن هذا نرى أن اضطهاد المسيحية لم يحقق غايته ، فانتصر الدين الجديد بفضل الشهداء الذين افتدوا بأنفسهم حياته ، وبفضل انصراف الأباطرة إلى صد غارات البرابرة على أملاكهم . . عاشت المسيحية على كره من خصومها ، لأنها تنطوى على « حق » لا يقوى على سحقه اضطهاد ، بل إن الاستناد إلى وصف المؤرخين لهذا الاضطهاد ، يبيح لنا أن نقول إن المسيحية قد انتصرت ، لأن الاضطهاد الذى أنزله به خصومها ، لم يكن من العنف بحيث يقوى على استئصال شأفتها ، ولم تطل أيامه الحالكة السود ، حتى يتمكن خصومها من إبادتها ، فقد قلنا فى مقدمة هذا الكتاب ، إن الاضطهاد ينجح فى تحقيق غايته ، متى طال عهده واشتدت أزمته ، وكان يهدف إلى إحلال عقيدة مكان أخرى ، إذ يبقى بذلك مجال الإيمان ويتحول مجراه ، وهذا أمر ميسور من الناحية السيكولوجية صحيح من الناحية التاريخية . .

تبرير اضطهاد الرومان للمسيحية

ويذهب صفوة المؤرخين إلى تبرير الاضطهاد الذى أنزلته الدولة الرومانية

بالمسيحية وأتباعها ، إذ كان الدين الجديد يناصب العقائد الأخرى العداء ، ولا يلين فى حكمه عليها ورأيه فى أتباعها ، وقد بدا من تصرفات المسيحيين واعترافاتهم ، أنهم على استعداد لإبادة المذاهب كلها ، وتحطيم الحضارة التى يعيشون فى ظلها ، متى تهيأت لهم سلطة تمكنهم من تحقيق هذه الغاية ، فكان على الدولة أن تنهض للدفاع عن نفسها ، ومحو هذا الدين الذى يهدد بإثارة الشقاق عند رعاياها ، وينذر بتحطيم الحضارة التى تعتز بها . ولم يكن أتباع هذا الدين الجديد طلاب حرية دينية ، فالمعروف أن شهداء المسيحية قد راحوا استجابة لنداء ضميرهم ووحى إيمانهم ، ولم يموتوا فى سبيل الدفاع عن مبدأ الحرية الدينية .. !

التسامح وبدء نفوذ الكنيسة فى روما

تخلى الأباطرة بعد دقلديانوس عن سياسة الاضطهاد ، وصدرت مراسيم التسامح فى عام ٣١١ وفى عام ٣١٣ - أصدر الامبراطور قسطنطين Constantine مرسوم ميلان ، وأقر فيه مبدأ التسامح ، ووضع المسيحية مع غيرها من الأديان على قدم المساواة .. ! ثم اعتنق المسيحية بعد عشر سنوات من هذا المرسوم ، فبدأ بهذا عهد جديد ، تحررت فيه المسيحية من قيود الاضطهاد ، وتأهب أتباعها لاضطهاد خصومهم على ما سنعرف بعد حين.

وقد نقل قسطنطين عاصمة ملكه إلى بيزنطة - التى سميت باسمه بعد ذلك - فتطلعت روما إلى رئيسها الدينى الأعلى ، وطمعت فى أن يأخذ مكان عاهلها الامبراطور ، وأخذت الكنيسة منذ ذلك العهد تستحوذ على سلطان واسع النطاق ممدود الرحاب ، وعكف الناس على مزاولة العبادات التى ترتضيها

اتقاء لعذاب الجحيم ، وطمعا فى نعيم الجنة المقيم ، ومكن لهذا السلطان ضعف الحكومة القائمة واجتياح البرابرة للأقاليم الرومانية ، مما مكن الكنيسة من التخلص من رقابة الحكومة وتدخلها فى شئونها ، وجاهر الأساقفة بإعلاء كلمة رئيسهم الدينى على سلطة الملك ، بحجة أن البابا مسئول أمام الله عن أعمال الملوك والناس أجمعين .

وكان المسيحيون الغربيون يعتقدون أن كنيسة روما قد انفردت من بين سائر الكنائس ، بأن منشئها رسول - هو الرسول بطرس - أعلى الرسل مكانة فى نظر المسيح وأتباعه - وكانت روما عاصمة الامبراطورية الرومانية ، ومن هنا نشأت أسبقية كنيستها على غيرها من الكنائس فى غربى أوربا ، واستقرت سيادتها بمنشور أذاعه فلانتين الثالث - بتحريض البابا ليو الأكبر + ٤٧١ وأضحت كنيسة روما مركز السلطة الدينية ، ومصدر التيارات الموجهة فى القرون التالية ، وسنرى الدور الذى قامت به فى اضطهاد المتهمين بالمروق والإلحاد .

وقد التمس بعض رجال الكهنوت لأنفسهم سلطة تيسر لهم أسباب الاضطهاد ، ونزعوا - كما سنعرف بعد - إلى استغلال السلطات المدنية فى تحقيق مقصدهم ، فطالبوا بفرض نوع التربية التى يؤخذ بها التلامذة فى مدارسهم ، ومصادرة الكتب التى لا تساير نزعاتهم ، وإقصاء المعلمين المارقين عن وظائفهم ، ونفى المفكرين الذين يخطئهم التوفيق فى إرضاء رجال الكهنوت ... بل نزعوا إلى التنكيل بالمارقين ليكونوا عظة لكل من ضل سواء السبيل ... وكانت عقوبة الإعدام الآثمة - كما سنعرف بعد قليل ...

تعقيب

نرى مما أسلفنا ، أن المسيحية قد لقيت فى عصرها الأول عنتا شديدا ، فنكل بأتباعها بعض الأباطرة وغيرهم من سواد الناس ، على غير ما جرى العرف فى هذه الآونة ، وكان هذا الاضطهاد يهدف إلى الحيلولة دون انتشار هذا الدين الجديد ، الذى ظنوه امتدادا لليهودية الحقود البغيضة إلى نفوسهم ! والتى لاحظوا عند أتباعها تعصبا لمبادئها ، وبغضا للحضارة الرومانية ، وسخطا على معتقداتها ، واحتقارا لشعائر أهلها .

ولكن المسيحية قد بقيت على كره من خصومها ، لأن الاضطهاد لم تطل أيامه السود ، حتى يستأصل أتباعها من الوجود ، ويحول دون اعتناق الأجيال الجديدة لمبادئها ، ولهذا انتصرت المسيحية على خصومها وأنوفهم فى الرغام ، وأخذ الأباطرة أنفسهم يعتنقونها ديناً ، فتوطد مركزها وأخذ نفوذها فى الاستقرار والانبساط .

وقد قلنا إن شوكة الرئيس الدينى الأعلى ـ البابا فيما بعد ـ قد أخذت تعظم فى مطلع القرن الرابع ، وأن اعتناق قسطنطين للمسيحية ، كان بدء عهد جديد ، تحولت فيه دفة الاضطهاد ، إذ أخذ المسيحيون ينزلونه بخصومهم ، وقد كانوا إلى الأمس القريب ضحاياه ..! فلنقف عند هذا وقفة قصيرة ، نفصل فيها ما أجملناه :

الاضطهاد فى المسيحية

أثر الاضطهاد الاسرائيلى فى الاضطهـــاد المسيحى — نزوع الآباء الاولين الى التسامح — بدء الاضطهاد في المسيحية — الشقاق في داخل الكنيسة — اضطهـــاد قسطنطين للملحـــدين — من آثار الاضطهاد في القرن الرابع — اضطهاد تيودوسيوس للملحدين — من عوامل نمو الاضطهاد — بدء الاعدام فى المسيحية — موقف الاكليروس من اعدام الملحدين — القديس أوغسطين ومكانته — انتصاره للاضطهاد — عقيدة الخلاص والاضطهاد — اضطهاد المسيحيين بعضهم لبعض فى مصر — الاذعان للكنيسة وانتفاء الاضطهاد — عودة الكنيسة الى مقاومة الروح الجديد — مذبحة الالبيجيين — تعقيب .

أثر الاضطهاد الاسرائيلى فى الاضطهاد المسيحى

استقام أمر الاضطهاد فى شريعة بنى اسرائيل ، كما تشهد مذبحة كنعان ومجزرة كهنة بعل Baal وغيرها من وجوه الاضطهاد ، بل لقد كانت مراسيم موسى أول دستور للاضطهاد الدينى ظهر بين البشر ، وقد نصت هذه المراسيم على أن عبادة الأوثان ليست خطيئة فحسب ، بل جريمة لا يمكن التكفير عنها بغير إهراق الدم !

ويكاد ينعقد الرأى عند جمهرة المؤرخين على أن هذه السياسة قد أثرت تأثيرا ملحوظا فى الاضطهاد الدينى عند المسيحيين ، فالأستاذ « بيورى » يصرح بأن بعض المقطوعات التى تنطوى على التعصب الممقوت فى « العهد القديم » ـ أى التوراه ـ قد تسللت إلى « العهد الجديد » وكانت زادا لأنصار

الاضطهاد فى العالم المسيحى بعد ذلك - وأيد « بايل » Bayle « ورينان » Renan القول بتأثر الاضطهاد فى العالم المسيحى ، بسياسة الاضطهاد عند اليهود - فيما يقول الأستاذ ليكى (١) Lecky - وإن كان من الحق أن نلاحظ مع « تايلور » Taylor أن المسيح حين رفض الإذن لرسله بإحراق الملحدين ، قد دل بهذا على نفوره من روح التعصب البغيض .

نزوع الآباء الأولين الى التسامح

أما عن آباء الكنيسة فقد تشعبت وجهات نظرهم وفقا للظروف التى أحاطت بهم ، فناهضوا الاضطهاد ونددوا بالتعصب ، يوم كانت السلطة فى يد خصومهم ممن لايدينون بدينهم ، فلما تمكن نفوذ الكنيسة وتهيأت السلطة لرجالها ، وأصبح فى مقدورهم أن يتحكموا فى خصومهم ، تولاهم التزمت ونزعوا إلى الاضطهاد فيما يقول الكثيرون من المؤرخين . كان « ترتليان » Tertullian + ٢٢٥ م أثناء الاضطهاد الوثنى ، كما كان « هيلار » Hilar (من أهل بواتييه) أثناء الاضطهاد الذى نزل بأتباع أريوس ، من أعظم المحامين الذين أبلوا فى الدفاع عن مبدأ التسامح أحسن بلاء . وقد كتب « ترتليان » « دفاعا » وجهه إلى حكام الولايات الرومانية ، وهاجم فيه مشروعية الاضطهاد ، ، واحتج على قسوة الإجراءات المتخذة ضد المسيحيين ، وراح

(١) هو W. E. H. Lecky فى كتابه :
Hist. of the Rise and Influence of the Spirit of Rationalism in Europe وقد استقينا بعض معلوماتنا عن اضطهاد المسيحيين لخصومهم من الفصل الأخير في الجزء الاول منه وعنوانه « بوادر الاضطهاد » والفصل الأول من الجزء الثانى فيه « عن تاريخ التعصب »

يتحدى قائلا : (إننا نتكاثر إذ تحصدوننا ، وإن دم المسيحيين لبذرة ، وإن لكم فيما تأخذونه علينا من عناء لعبرة ، فمن ذا الذى يشهده ولا يتزعزع ، ثم لا يبحث عن السر فيه ، ومن ذا الذى يبحث فلا ينضم إلينا ، ومن ذا الذى ينضم إلينا فلا يتوق للعذاب وللموت ، فى سبيل الحصول على النعمة الإلهية كاملة والنمو شاملا ؟) . ومن هذا الدفاع ، وما تضمنه من التحدى الملحوظ ، ندرك سر دعوته إلى التسامح ، وحملته على الاضطهاد ، وموقفه هذا لم يمنعه من أن يضع كتابا « إلى الأمم » يهاجم فيه الوثنية ، إلى جانب كتبه التى رد فيها على المبتدعة من المسيحيين (١) وإلى جانبه عرف آباء آخرون وإن كانت آثارهم فى مجال هذا الدفاع أخف حماسة وقوة .

وفى أثناء الاضطهاد الذى أنزله بالمسيحيين « دقلديانوس » ، اعتنق المسيحية « لاكتانتيوس » Lactantius وأكد فى عهد قسطنطين جريمة الاضطهاد ، ولكن تأثير كتاباته كان ضئيلا ، بل لقد عانى هو نفسه الاضطهاد ، إذ اتهم بأنه ينكر شخصية الروح القدس ، فأدان كتاباته مجلس تولى البابا جلاسيوس (٢) Glasius رياسته .

أما غير هؤلاء من الآباء ، فقد كانوا إذا نزعوا إلى الكبح ، تحاموا الإسراف وكرهوا أن يكون الإعدام عقوبة للهرطقة (الإلحاد) ، ونفروا من هذا كل النفور ، وسنعود إلى هذا عند الحديث على « موقف الأكليروس من إعدام الملحدين »

---

(١) يوسف كرم في تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ص ١٦ (طبعة أولي)

(٢) تولي عرش البابوية من ٤٩٢ ـ ٤٩٦ م

وبهذا امتازت الأرثوذكسية المسيحية من غيرها من المذاهب التى زاول أتباعها اضطهاد خصومهم دون رفق ولا رحمة، حتى قيل إن أكثر من ثمانين كاثوليكيا - من رجال الدين المسيحى - قد سجنوا فى عهد الامبراطور Valens - الذى اعتنق مذهب آريوس - ثم أحرقوا غدراً . . .! وفى الحق لقد كان موقف الآباء الأولين فى جملته، متمشياً مع روح المسيحيه التى نزلت مبشرة بالحب فى أسمى صورة، داعية للأخوة بين الناس فى أكمل مراتبها، على ما أشرنا فى مقدمة الكتاب.

بدء الاضطهاد فى المسيحية

قلنا إن المتزمتين لا يملكون التنكيل بخصومهم، متى كانت السلطة تعوزهم، والمظنون أن المسيحية قد أقرت سلطة رؤسائها من رجال الكهنوت، إذ ورد فى الإنجيل « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات » وتأكد فى نفس الإنجيل هذا المعنى، إذ جاء فيه (الحق أقول لكم، كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء) (١)

وهذا بالإضافة الى ما تهيأ لرجال الكهنوت من سلطان زمنى فى بعض مراحل التاريخ - كما سنعرف بعد.

ومنذ اللحظة التى ظفرت فيها الكنيسة بسلطة مدنية - فى عهد قسطنطين -

---

(١) انجيل متى، الاصحاح السادس عشر فى الآية التاسعة عشرة، ثم الاصحاح الثامن عشر الآية الثامنة عشرة فى نفس الانجيل

دخل مبدأ الكبح العـــام ، واستمر عشرة قرون شـداد ، رسف فيها العقل والقلب فى الأغـــلال ، وعـانى من قسوته اليهود وعبـــاد الأوثان كثيراً، فأما اليهود فقد أشرنا إلى أنهم كانوا مثار الـكراهية والحقد فى الدولة الرومانية، تزيد من هذا الشعور حركة « تهويـد » قوية، تهدف إلى رد الناس عن المسيحية، ومقاومة الذين يرتدون عن اليهودية بالقوة والعنف ، وقد حاول قسطنطين أن يضع حدا لشرورهم ، فأصدر قانونا يقضى بإحراق كل يهودى يلقى على كل من اعتنق المسيحية حجراً، وعقاب كل مسيحى تهود ـ أى اعتنق اليهودية ، ثم عدل العقاب إلى مصادرة الأملاك ، فإن تزوج يهودى بمسيحية أعدم

الشقاق فى داخل الكنيسة

وقد نبت الشقاق فى داخل الـكنيسة ، وتشعبت وجهات النظر بين المسيحيين أنفسهم منذ عصور المسيحية الأولى ، وكان طبيعيا أن تتصدى الـكنيسة للدفاع عن تعاليمها ، وأن تعقـد المجامع الدينية للنظر فى كل رأى مخالف ، وعقاب كل من دان به ، وكان استخدام المنطق ومقارعة الحجة بالحجة ، هى السلاح الذى شـاع استخدامه فى هـذا النزاع ، أما العقوبات التى كانت تفرضها الـكنيسة على دعاة الآراء الشاذة والمذاهب الهـدامة الجامحة ، فقد كانت محتملة لم ترتفع قط إلى مرتبة الإعدام، ومن دلالات هذا ظهور آريوس + ٣٣٦ فى الاسكندرية ، واتهـــامه بالإلحاد لأنه أنـكر ـ على غير ماجرى العـرف الـكنسى ـ ألوهية المسيح ، وزعم أنه لا يساوى الآب فى جوهره وطبيعته ، وأنه خلق بإرادة الآب فكان حادثا غير قديم ! فنظمت الـكنيسة مجمعا حضره من أسـاقفة مصر وليبيا

نحو مائة أسقف ! فلما ركب آريوس رأسه وأصر على رأيه ، أدانه المجمع مع أتباعه ، وأعلن الإسكندر - أسقف الإسكندرية - هذا الحكم إلى جميع الأساقفة .

ولما فشى مذهب آريوس وكثر أتباعه ، أمر قسطنطين فى عام ٣٢٥ م بعقد مجمع دينى فى نيقية ، ضم نيفا وثلاثمائة أسقف من آسيا وأفريقيا وأوربا ، فحكم بوحدة الجوهر عند الآب والابن معا ، وإدانة آريوس وإحراق كتاباته وتحريم اقتنائها ! ومن رأى من الأساقفة الانتصار لمذهب آريوس ، أمر قسطنطين بخلعه ونفيه ، وإن كان قسطنطين قد عاد إلى الرضا عن آريوس وأتباعه ! ولبث آريوس على دينه حتى مات ، ولم يمت المذهب بموته ، بل نما واجتذب الكثيرين من الأتباع ، فعقد من أجله الكثير من المجامع الدينية ، كان قوامها الإقناع بالحجة والمنطق

ومن قارن موقف الكنيسة من هذه الحركة ، بموقفها من البروتستانتية بعد ذلك ، أو من الشيع الدينية التى خالفتها الرأى - من أمثال شيعة الجانسنست(١) والكاتاريين والألبيجيين - وسنعرض للحديث عنها بعد ، من

---

(١) هي شيعة دينية تنسب الى الكاهن الكاثوليكى Cornelius Jansen تدين بعقائد مستنبطه من مذهب القديس أوغسطين - ٣٤٠ م فتناهض العقيده الكنسية الشائعة عن حرية الارادة ، وترى سلب الحرية الباطنية عن البشر ، واذعانهم لرحمة الله ، والجسم عندهم هو الذى يغرى بالشر ويدفع اليه ، ولو شاء الله ان يرحم الناس لوقاهم شره ! فعضبت الكنيسة لهذا لان الشر مرجعة عندها الى اختيار الانسان ، اقرأ مادة Jansenism في دائرة معارف الدين والاخلاق ومصادر هذه المادة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

قارن بين هذين الموقفين ، أدرك التطور الملحوظ الذى اعترى مسلك الكنيسة ، وحول اتجاهها الرحيم ، شطر الكبح والاضطهاد والتنكيل والاعدام ! .

اضطهاد قسطنطين للمسيحية

أما عن سياسة قسطنطين حيال الوثنيين فمشوبة بالغموض ، لأنه فى السنوات الأولى من حكمه ، حين كان سلطان المسيحية لا يزال قلقا ، وحين كان يشاطره الحكم ليكينيوس Licinius الوثنى ، أبدى قسطنطين تسامحا ملحوظا حيال معتنقى الخرافات القديمه ، ولكن بعض قوانينه أثارت الفزع فى نفوس الوثنيين ، فحاول أن يرد إليهم طمأنينة نفوسهم ، فأعلن فى وضوح الإذن بعبادة الأوثان ! ولما توطدت قدمه ، وسحق خصمه ليكينيوس عام ٣٢٤ م ، غير اتجاه سياسته ، فأصدر أمره إلى الحكام من مرءوسيه ، بالكف عن إظهار الولاء للأوثان ، ثم وضع حكومات الأقاليم فى أيد مسيحية ، ومضى عام ٣٣٠ إلى أبعد من ذلك ، فمنع عبادة الأوثان - فيما يقرر بعض المؤرخين الدينيين ، وإذا كان المرسوم الذى قضى بهذا التحريم لم يصل إلينا ، فقد أكد صدوره الكثيرون من المؤرخين الموثوق بهم .

على أن قسطنطين وإن كان قد عادى الوثنيين ، فقد خاف كثرتهم وتدرج فى مقاومة عقائدهم ، ومن هنا كان استمرار الوثنيين فى عباداتهم إلى عهد تيودوسيوس ، مع أن قسطنطين قد حرم مزاولة هذه العبادات فى كل صورها .

من آثار الاضطهاد فى القرن الرابع

وظهرت فى القرن الرابع والخامس فى الكنيسة المسيحية طائفة دينية هى الدوناتست Donatist شايعوا الاضطهاد وأكبروا من شأن الشهداء الذين اشتدوا فى معاملة المارقين ، وقد أبان نسطوريوس Nestorius (١) بطريق القسطنطينية عن مبدئه فى الاضطهاد ، حين قال للامبراطور : أعطنى الدنياوقد تطهرت من الملحدين ، أمنحك نعيم الجنة المقيم ..!

أما عن الهراطقة ممن أسلفنا ذكرهم من الدوناتست وأتباع آريوس ، فقد قضت القوانين بهدم كنائسهم ومصادرة اجتماعاتهم ، ونفى كهانهم ، وإحراق كتاباتهم ، فمن أخفى ما كتب كان الإعدام مصيره ، وقد صدرت ضد بعض الدوناتست أحكام بالإعدام ، ولكنها ألغيت قبل تنفيذها ، وكل دم أريق فى هذه الفترة كان مرد إراقته إلى ما بدا من تطرف مسرف عند بعض أتباع هذه الطائفة ممن انساقوا وراء المبادىء الهدامة التى لا تتمشى مع أمن الدولة .

اضطهاد تيودوسيوس للملحدين

ويظهر أن أول قانون نص على الإعدام عقوبة للملحدين ، كان فى دستور تيودوسيوس + ٣٩٥ م الذى لم يطبق إلا على أتباع المذهب المانوى ، وهو أول قانون نصادف فيه لفظ « مفتشى الإيمان أو رجال محكمة التفتيش ..!»

(١) كان بطريقا من ٤٢٨ الى أن أدين وخلعه مجلس أفسوس عام ٤٣١ وهو الذي قرر ألوهيه المسيح وانسانيته معا ، ولكنه انكر وحدتهما في شخصية واحدة شاعرة بنفسها ، ومن ثم انشطرت الوحدة الى اثنينية .

وضع تيودوسيوس أواخر القرن الرابع قوانين صارمة تتضمن ستا وستين بندا لمقاومة الهرطقة ، وإلى جانبها بنود أخرى لاستئصال الوثنية ومناهضة الديانة اليهودية والارتداد عن الدين ومزاولة السحر ونحو ذلك . وكان هذا الدستور يقضى بإقصاء الوثنيين عن وظائفهم فى الدولة ، وتحريم طقوسهم السرية ، وحظر عبادتهم جميعا ، وهدم معابدهم ، وتحطيم صورهم ، وقد كان الكثيرون من أهل الريف يجهلون أمر المسيحية إلى ذلك العهد ! ومرد جهلهم إلى قلة المواصلات وفشو الجهالة وانقطاع الاتصال بين الريف والحضر ، ومن أجل هذا هالهم هذا القانون الذى صادر عباداتهم وحطم معابدهم ، على أن ليبانيوس Libanius كان واسع الصدر رحب الأفق ، فدافع عن قضية الفلاح فى هذا الصدد دفاعا مجيدا ، لأن المعبد كان عند هذا الفلاح رمزا للاله الذى يتفانى فى عبادته ، كان مصدر السلوى والعزاء عما يعانيه من متاعب ويكابده من محن ، كان أقدس متعة فى حياته ، فإن حطمته فقد قضيت على أعز ما يملك فى دنياه ، وجرحت موطن الاعتزاز فى نفسه ، ومزقت صلات القربى بالأعزاء من موتاه ، وأتيت على مهبط الإيمان الذى يعمر قلبه ... ولكن على غير جدوى كان دفاعه المجيد ! فهدمت فى عهد تيودوسيوس الكبير جميع معابدهم ، وصودرت كافة عبادات الوثنيين والملحدين ، ومنعت مزاولتها منعا باتا ..

من عوامل نمو الاضطهاد

وفى هذه المرحلة من الزمن - فى النصف الثانى من القرن الرابع لميلاد

المسيح - ظهر عاملان كان لهما خطرهما الملحوظ فى تطور الاضطهاد وإقرار سياسته ، أولهما أن الكثير من مجالس الأكليروس قد طلب إلى السلطات المدنية معاقبة الهراطقة أو نفيهم ، وكان لهذه القرارات أثرها الملحوظ فى مسلك الحكومة إزاءهم ، وثانيهما استقرار نظام الرهبنة ونموه ، وبهذا النظام ظهرت مجموعة من الرجال الأفذاذ فى إنكار الذات والاعتصام بالشجاعة المجيدة ، والتزام التزمت الصارم والتعصب الجازم الخلو من كل رحمة ، أحبوا العزلة فنفروا من روابط الزواج وعلاقات الرحم والقربى والصداقة ونحوها - وإن كان بندكت + ٧٤٣ قد قاوم فكرة العزلة فى نظام رهبنته بعد - ورفضوا حياة الترف وزهدوا فى اللذات ، وكلفوا ببساطة العيش فأحبوا الفاقة والوحدة ، وراحوا يتجولون فى الصحارى مع الحيوانات المتوحشة نصف عرايا يكادون يموتون جوعا .. ، كاد الرهبان القدامى أن يخمدوا فى أنفسهم كل عاطفة طبيعية ، وأن يبرءوا من مغريات الثروة ومفاتن الجاه ، ويتجردوا من نزعات الطمع والرغبة فى نعيم الدنيا ، وكانت كافة البواعث التى تهيمن على مشاعر الناس ، مجرد ألفاظ خلو من كل معنى يدعوهم لاحترامها ؛ ولم يكن من الميسور لمثل هؤلاء أن يتخلوا عن مبادئهم لقاء رشوة أو خوفا من عقاب أو طمعا فى ثواب ؛ إنهم يقبلون على الزهد فى اللذات راضين مغتبطين ، ويتولون أجسامهم بألوان العذاب تكفيرا عما توهموه من ذنوب .. ! إنهم يتفانون فى صيانة دينهم وحماية مبادئهم وترقية كنيستهم .. كان هذا هو الهوى الوحيد الذى بقى لهم بعد أن قضوا على كل ما ينطوى عليه الإنسان من أهواء وميول ورغبات .. !

لم يكن هناك عناء لم يكونوا على استعداد لاحتماله أو ابتلاء أنفسهم به ! وقد خلف لنا مؤرخو الوثنيين صورا صادقة لوصف حماستهم البالغة فى تحطيم الأوثان ، ومقاومة العبادات التى لا تساير دينهم ، وكثيرا ما كانوا يستشهدون فى نزاعهم مع الملحدين ، حتى خفت عبادة الأوثان وقل أتباعها .. !

بدء الاعدام فى المسيحية

قلنا إن أول قانون نص على الإعدام عقوبة الملحدين ، كان قانون تيودوسيوس ، ولعل أول تطبيق لهذا القانون كان فى عام ٣٨٥ م حين أدين الملحد الأسبانى بريسكليان Prescillian على ما سنعرف بعد قليل ، وأعدم بأمر الامبراطور ماكسيموس ، وكان طريفا أن يوجه تمستيوس Themistius وهو لا يدين بالمسيحية - خطابا إلى الامبراطور Valens يطالبه فيه بإلغاء القوانين التى أصدرها لمقاومة المسيحيين الذين يراهم على خلاف معه ، وصرح فى خطابه بأن الحكومات لا سلطان لها على قلوب الناس ومعتقداتهم ، وأن القمع قد يفضى إلى الاعتراف القائم على الرياء والنفاق ، وأن من واجب الحكومة ، أن تيسر لكل إنسان اعتناق الدين الذى يشاء ...

موقف الاكليروس من اعدام الملحدين :

شارك رجال الأكليروس فى إعدام بريسكليان وأتباعه لأول مرة ، بتحريض الكاهنين أورزاتيوس Ursatius وإيثاكوس Ithacus ، ومع أن القديس أمبروز كان يضطرم حماسة لقمع عبادة اليهود والوثنيين ، فقد احتج

على ارتكاب هذه الجريمة ، وشهر بها القديس مارتن فى مرارة وحدة واعتبرها جرما فاحشا ، وأبى الاتصال بالكهنة الذين شاركوا فى ارتكاب هذا الجرم ! وطالب القديس كرايسوستوم Chrysostom بأن تباح للملحدين حرية الكلام وعقد الاجتماعات ، وصرح بأن إعدام الملحد ، إقرار بارتكاب جريمة لا سبيل إلى غفرانها أو التكفير عنها !

وبمثل هذا الحنق كان يهاجم الكثيرون من القديسين فكرة الإعدام ومشاركة رجال الأكليروس فى تنفيذها ، ولم يكن هذا غريباً ، لأن العرف الذى أقره فى الكنيسة ترتليان ولاكتانتيوس كان يحرم على المسيحى أن يقدم تحت أى ظرف على قتل رفيق له باتهام يؤدى إلى إعدامه ، ويحظر عليه أن يشارك - قاضيا أو جنديا أو جلادا - فى قضية من هذا النوع !

وقد أشرنا إلى هذا عند الكلام على « نزوع الآباء الأولين إلى التسامح » وقلنا إنهم هاجموا الاضطهاد ، ونفروا من مزاولته ، وسايروا دينهم السمح فى دعوته للحب وتبشيره بالسلام .

كان هذا مسلك الكنيسة يوم كانت السلطة تعوزها ، ويوم كان رجالها يخشون أن يكونوا موضعا الاضطهاد ، وأن يعانوا من أمره مالا طاقة لهم به ، فلما اكتملت السلطة للكنيسة ، وأصبحت ذات حول وطول ، شرع المتزمتون من رجالها فى تغيير سياستها بصدد عامة الناس أول الأمر ، ثم بصدد رجال

الكهنوت بعد ذلك ، على أن هذا التغير فى سياستها ، لم يمنع رجال الأكليروس من أن يتوسلوا إلى القضاة ، كلما قدموا إليهم مذنبا ، أن يتجنبوا الحكم عليه بالإعدام ، أو بتر عضو من أعضائه ، لأنهم إن أغفلوا هذا التوسل، أذنبوا وعرضوا أنفسهم لملامة الهيئة الإكليركية ! ! وكانت هذه القاعدة فى أول أمرها ، تعبيرا عن دعوة المسيحية لحب البشر ، ونشر الصفاء والوئام بين الناس ، والرغبة فى إنقاذ حياة المتهمين، ولكنها فسدت آخر الأمر ،وأصبحت رياء قبيحا ونفاقا ممقوتا ، فقرر « بونيفاس الثامن » أن يشفع الكاهن للمذنب عند تسليمه إلى السلطة الزمنية - وإن كان على يقين بأن شفاعته لن تجاب . . ! واستمر هذا اللون من التوسل الشكلى أمام محاكم التفتيش ، وإن كان بعض الكهان أنفسهم ، قد أدانوا الهرطقة وقرروا الإعدام عقابا لها . . ! وقرر إنوسنت الثامن حرمان كل حاكم يغير حكمهم أو يتباطأ فى تنفيذه أكثر من ستة أيام . . !

القديس أوغسطين ومكانته

ولكن الكاتب الذى قدر له أن يمكن لنظام الاضطهاد، ويزود أنصاره المتأخرين بالحجج المؤيدة للقمع والكبح ، كان القديس أوغسطين + ٤٣٠ الذى أسكت اسمه كل نزاع إلى الرحمة زمانا طويلا .

كانت كتاباته شعار كل من نزع إلى الاضطهاد ، وبها برر الذين زاولوه مسلكهم إزاء من أنكر عليهم ذلك . وعلى هذا القديس تقع تبعة الاضطهاد أكثر مما تقع على عاتق من أنشأ محكمة التفتيش !

وقد انحدر هذا القديس عن أب من أشراف الوثنيين ، وأم من أشد الناس تمسكا بالنصرانية ، ودان بالمانوية فترة ارتد بعدها إلى اعتناق المسيحية، كما يقول فى كتابه « الاعترافات » (١) وقد أضحى بعد التنصر مثالا طيبا لغير من المتدينين ، وكان رقيق الحس تقى النفس ، كما كان لاهوتيا ممتازا وفيلسوه غلابا فى مناقشة الوثنيين ومن إليهم من الملحدين . وكانت حياته مزاجا غريباً من أعظم العوامل المتباينة فى تطور هذا العقل الفريد . إن أهواء شبابه الجامح ، وغلوه فى الإلحاد الذى زاوله مدة طويلة ، لم يحجب بهاء عقله الممتاز الذى كان يستوعب كل ميادين المعرفة ، إن عبقريته ومعرفته بالرجال والكتب ، وشذا القدسية التى خلعت على كل كتاباته المتأخرة سحرا ، وغير هذا من مميزاته ، قد جعله سيد العقل فى الكنيسة كلها ! إبان عصره ، فطبع الكنيسة بعده بطابع روحه الغلاب ، وجعل رسالته أن يرسم لاهوت الكنيسة فى دقة ، وأن يهذب مبادئها ويضم مختلف أجزائها إلى سلطة واحدة وكل متناسب الأجزاء .

كان هذا القديس الممتاز ، أقوى من عرفت الكنيسة من المدافعين عن العقائد التى أدت الى مبدأ الاضطهاد ، وإذا كان قد نفر من النزوع إلى الاضطهاد حينا من الزمن ، فسرعان ما أسلمته اليه بالضرورة مبادئه، وأضحى ممثل اللاهوت المتعسف المتزمت الذى يقف عند حرفية النصوص لا يتجاوزها ، وفى آثاره اللاهوتية فيض من النصوص يشهد بما نقول .

---

(١) انظر تفصيل هذا في كتاب تاريخ الفلسفه الاوربية في العصر الوسيط للاستاذ يوسف كرم ص ١٩ وما بعدها — طبعة اولى ، وانظر فيما يلى ذلك كتاب Lecky بوجه خاص وبيوري Bury وهوايت A. D. White بوجه عام

انتصار القديس أوغسطين الاضطهاد

صاغ القديس أوغسطين مبدأ الاضطهاد لهداية الأجيال التالية ، وأقامه على أساس من الكتاب المقدس ، فاستند إلى كلمات فاه بها المسيح فى مثل من أمثاله التى كان يسوقها لحوارييه إذ قال مامعناه : أجبروهم على اعتناق دينكم Compelle Intrare . . وتمشيا مع هذا المنطق ، سلم أوغسطين بمعاقبة الملحد بالنفى والجلد وفرض الغرامات ، ووضع للكنيسة دستورا تلتزمه إزاء كل حركة إلحادية ، فمضت الكنيسة بعد هذا جاهدة فى تحقيق هذا الدستور . . !

وكم كان غريبا مصير هذا الرجل ! إن معاصريه قد فقدوا بعد عدة قرون من الزمن ، كل ماتهيأ لهم من سطوة ونفوذ ، إن أسماءهم لاتزال حية ، وكتبهم يتداولها العلماء والرهبان ، ولكن تغير مناهج التفكير والمشاعر ، قد أقصاهم عن مراكز الاهتمام عند الناس ، أما أوغسطين فقد تخطت به عبقريته الزمان والمكان ، ومكنت لكتاباته أن تعيش فى قلوب الناس حية تسيطر على حركاتهم وتهيمن على توجيههم ، وتهذب أجمل وأسوأ العواطف فى طبيعتهم .

ومن كتابات هذا القديس فى البر والتقوى والقضاء والقدر والأعمال الخيرية وغيرها ، استمد البروتستانت أعظم أسلحتهم قوة وصلابة ، وفى تزمته البادى فى نظرياته ، وفى سمو سطوته وعبقريته ، عرف المذهب الكاثوليكى أخص مميزاته ، وبهذا وجد الكاثوليك والبروتسنانت فى كتاباته ، أصدق تعبير عن عواطفهم الدينية . وقد أخفى المتزمتون من أتباعهما تعصبهم وراء اسمه

هـــذا القديس العظيم !

وقد استمد أوغسطين من عقيدة الخلاص ، بعض حججه التى دافع بهـــا عن مبدأ الاضطهاد ، واستقى بعضها الآخر من « العهد القـديم » ومن رأيه أن من دلالات الرفق وشواهـد الرحمة ، أن يعاقب الملحدون إذا كان هذا العقاب ينقذهم من العذاب الأبدى، الذى ينتظره المرتدون عن دينهم القويم ، إن الهرطقة توصف فى الـكتاب المقدس ، وكأنها نوع من الفسق والمروق وعبادة الأوثان ، إنهـا أسوأ أنواع القتل ، لأنهـا قتل للنفوس ! إنها نوع من التجـــديف Blasphemy ومن أجل هذا اقتضت العدالة أن ينال أهلها ما يستحقون من عقاب ، واذا كان « العهد الجديد » لايقدم مثالا لرسول استخدم القوة والعنف فى نشر الدين ، فقد كان هـذا لأن عصرهم قد خلا من وجـــود أمير يعتنق المسيحية ، ولـكن ألم يذبح اليشع Elijah بيديه أنبياء بعل ؟ ألم يحطم حزقيـــال Hezkial ويوشع Josiah وملك نينفه ونبختنصر Nebuchadnezzar بعد ارتداده، ألم يحطم هؤلاء بالقوة عبادة الأوثان فى أقاليمهم ؟ وألم يكونوا موضـع ثنـاء محمود من أجل ما انطووا عليه من وجوه التقوى ؟

على أن من الإنصاف أن نقول إن أوغسطين وإن كان قد ذاد عن القوانين التى استخدمت فى مناهضة « الدوناتست » ورغم أنه صرح بأن الهرطقة أبشع الخطـايا ، ومن ثم وجب عقاب أهلهـا ، فقد لبث فى تناقض ملحوظ ، اذ بذل جهدا كبيرا لـكى يحول دون أن تـكون العقوبة صارمة ترتفع الى مرتبه الإعدام وقد حذر ، بل أمر اصحاب السلطة بأن يقصروا العقوبة على النفى ، وحذرهم

إن أبوا الاقتصار على ذلك ، بأن يمتنع الكهان عن تبليغهم عن الملحدين ! بل لقدحاول فى نجاح أن ينقذ بعض الذين صدرت الأحكام بإدانتهم ، وإن لم يمنع هذا من أن نقول إنه كان يطالب بعقاب الملحدين ، ويقيم حق العقوبة على أساس بشاعة الاتهام الذى اعتبره أعظم الجرائم إطلاقا ، بل لقد اعتبر التجديف هرطقة ، وقرر معاقبة أهله بالإعدام عدلا ، واستشهد على عدالة ذلك، بمثل وردت فى « العهد القديم » ـ وان كان قد دافع عن الدوناتست الذين تقرر إعدامهم فى عهد قسطنطين ، وامتدح غفران ذنوبهم ، وإلغاء الحكم الصادر ضدهم ! وصفوة الرأى عنده أن العدالة تقتضى أن يعاقب الملحدون بالإعدام ، ولكن من العدالة ألا يلتزم رجال الدين حرفية العدالة الدقيقة ! وكان طبيعيا بعد هذا أن يهاجم الحرية الدينية فى غير رفق .

عقيدة الخلاص والاضطهاد

نفر الأكليروس زمنا طويلا من قمع الهرطقة بإعدام أهلها ، وكان هذا متمشيا مع مبدأ المسيحية فى التبشير بحب الناس بعضهم بعضا على ما أشرنا فى مقدمة الكتاب ، ولكن النفور من فكرة الإعدام ، لم يمنع من حماسة الأكليروس فى مقاومة العبادات التى لا تساير تعاليم المسيحيه ، ومطاردة أهلها فى غير هواده ، وإقصاء القائمين بأمرها والمروجين لها خارج الإمبراطورية

وعن عقيدة الخلاص صدر التفكير فى الاضطهاد ، إذ أخذ المسيحيون . يبشرون بنظرية مؤداها أن « الخلاص » لا سبيل إليه إلا عن طريق الكنيسة الكاثوليكية وحدها ، وروجوا للايمان بأن الذين لا يذعنون للكنيسة

ويعتقدون بصدق نظرياتها ، تحيق بهم اللعنة الأبدية لامحالة ، فأفضى هذا الاعتقاد إلى الاضطهاد والتنكيل بكل من أبى الإذعان للكاثلكة ، واعتبرت الهرطقة أعظم خطيئة ، لايقاس مايتبلى به أصحابها فى الدنيا من صنوف الآلام بما ينتظرهم من عذاب الجحيم ، وأضحى إنقاذ الدنيا من أعداء الله واجبا مقدسا ، والاتصاف بالفضيلة لاينهض عذرا للمروق ، فالطفل على براءته وخلو ساحته من الخطايا ، متى مات من غير تعميد ، قضى بقية حياته فى جهنم ، فالطبيعى بعد هذا أن يستهدف المتهمون بالمروق لأشد صنوف العذاب !

كان الاضطهاد أروع النتائج التى نجمت عن عقيدة الخلاص ، لأن الإيمان متى اشتد ، ارتفع فوق كل احتمال للجدل ، واعتقد أهله أن كل من يخالفهم فى الرأى ، مصيره جحيم يصلى فيه شقاء أبديا ! لأن الإيمان متى كان متزمتا متعسفا أغرى أصحابه باضطهاد كل من لايدين بدينهم ويساير نزعاتهم ، لايحد من غلوهم فى الاضطهاد ، إلا حاجتهم إلى السلطة ! وقد يكون ضحايا هذا الاضطهاد من الغيرية ونبل النفس واحترام الكرامه ، بحيث يثير اضطهادهم فى النفس كل إشفاق ، ولكن فضائلهم تبدو عند غلاة المتزمتين رذائل تستحق كل عقاب صارم ، لأن هذه الفضائل هى التى شجعتهم على التمسك بإلحادهم والتشبث بما يبدو فى نظر هؤلاء المتزمتين ضلالا مبينا ، والإصرار على الضلال أحق بالعقوبة الصارمه من التردد فى اعتناقه أو عدم التطرف فى اتباعه!

اضطهاد المسيحيين بعضهم لبعض فى مصر

المعروف من تاريخ الأديان أن الاصطدام الذى يقع فى الدين الواحد من

المذاهب المتقاربة بعضها والبعض الآخر ، يكون أشد وأعنف من الاصطدام الذى يقع بين الأديان المتباعدة ، وحسبنا فى التدليل على عنف الاصطدام بين المذاهب المتقاربة فى الدين الواحد ، ما وقع فى مصر قبيل الفتح الإسلامى ، بالإضافة إلى ما سنعرفه عن الاصطدام بين البروتستانية والكاثوليكية بعد :

فكر هرقل بعد انتصاره على الفرس فى توحيد المذاهب المسيحية كلها ، وعقد لهذا مجمع خلقدونية ، فأقر البطارقة الذين يمثلون فيه شتى المذاهب المسيحية مذهبا واحدا ، أراد فرضه على المسيحيين فى مصر عن طريق « قيرس » ، وكان بنيامين كبير أساقفة القبط فى مصر ، وكان حبيبا إلى نفوس أهلها ، شديد التعصب لمذهب اليعاقبة الذى كان يدين به أهلها ، فلما قدم الإسكندرية « فيرس » فى خريف عام ٦٣١ م فر بنيامين ، وأثار فراره الهلع فى نفوس المصريين ، فتنكر اليعاقبة والملكانيون على السواء رغم محاولته التظاهر أول الأمر بالمسالمة والرغبة فى التزام الإقناع بالحجة ، ولكن هؤلاء قد اعتبروا الدعوة الجديدة بدعة وكفرا وضلالا ، فنزع هذا إلى الشدة والبطش والتعذيب المحض . ووقع الاضطهاد الأعظم واستمر عشر سنوات حسوما ، عذب فيها أخو الأسقف الأكبر بنيامين بإحراقه بالمشاعل وخلع أسنانه وتهديده بالإغراق حتى إذا أمعن فى الإباء ألقى فى البحر وراح غريقا . . . !

وعذب صمويل فى ديره بالصحراء . . على ما عرفنا عند الحديث على شهداء المسيحية فى مصر . وجلا الكثيرون عن مصر من جراء هذا البطش الآثم ، ولاذوا ببلاد النوبة وأثيوبيا فراراً إلى الله بدينهم ، واعتنق غيرهم المذهب

الجديد تقية ورياء (١)

الإذعان للكثلكة وانتفاء الاضطهاد

استراحت الكنيسة الغربية بعد أن خمت عبادة الأوثان فى الامبراطورية الرومانية، وعاشت عدة قرون لم تشعر إبانها بحاجتها إلى مزاولة الاضطهاد - إلا فى حالات نادرة - لأن المبدأ الذى صاغته، قد أذعن له الناس فى الامبراطورية الواسعة طولا وعرضا، وإن كان بعض الملحدين قد أدينوا من جراء مزاولتهم للسحر، فأحرق Alexius Comnenus أثنين أو ثلاثة من هؤلاء السحرة، وكان هذا مصير غيرهم فى فرنسا فى مطلع القرن الحادى عشر، وفى كولونى وإيطاليا أحرق بعض الكاثاريين. وهم طائفة من الملاحدة الذين دانو بالمانوية، وقد نشأ مذهبهم فى كل جنوبى أوربا وغيرها فى العصر الوسيط، ويكاد يكون هؤلاء هم ضحايا الاضطهاد الدينى فى أوربا خلال عدة قرون سبقت معارك الالبيين (الألبيجيين)

ومعنى هذا أن الكاثوليكية على هذا الوضع، كانت مشبعة لحاجات أوربا العقلية، فلم تكن ظلما وبغيا يفضى الشعور به إلى الثورة عليه والتمرد على أهله

---

(١) انظر كتاب بتلر « فتح العرب لمصر » طبعة عام ٩٣٣ الفصل الثالث عشر « الاضطهاد الاعظم للقبط على يد قيرس » ص ١٤٩ وما بعدها . وانظر الفاروق عمر للدكتور هيكل باشا ح ٢ ص ٧٦ — ٧٨ وخلاصة مذهب اليعاقبة أن الطبيعة الالهية والبشرية امتزجتا فى المسيح فصارتا فيه طبيعة واحدة ، فكان عند التجسد ذا طبيعتين ، أما بعد فصار ذا طبيعة واحدة أما مذهب الملكانية فخلاصته « أن الابن مولود من الآب قبل الدهور ، غير مخلوق وهو جوهره ونوره ، والابن اتحد بالانسان الماخوذ من مريم فصارا واحدا وهو المسيح »

ولم تكن مذهبا مستقلا يعتنقه البعض ولا يدين به غيرهم ؛ كانت نشاطا يتخلل جزءا من وسط أوربا وغربيها على أقل تقدير ، ويؤثر فى نظامها الاجتماعى كله ويستوعب مختلف تياراته ، فعادات الناس وتقاليدهم وقوانينهم ودراساتهم ، وكل ما يستمتعون به من وجوه اللذات المباحة وأسباب الترف الحلال ... كلها صدرت عن التعاليم الدينية كما فهمتها الكنيسة الكاثوليكية ، صاحبة النفوذ طوال هذه القرون ...

كانت الكنيسة قلب العالم المسيحى وروحه ، ومصدر وحيه ومبعث إلهامه ، وعندها التقت التيارات العقلية والمشاعر الدينيه والنزعات الوجدانية، فلم يكن من الطبيعى إبان هذه المرحلة من حياة أوربا ، أن يظهر الملحدون المارقون الذين يستخفون بدين البلاد وعرفها ، ويضنون باحترام أهل القداسة من رجالها ، ومن هنا كانت السلطة الدينية التى تمثلت فى رجال الكنيسة ، وبها شرعوا - يوم بدأ العالم الأوربى يستيقظ من سباته - فى كم الأفواه وقمع الفكر الحر ، ومطاردة كل من خالفهم الرأى - على نحو ما سنعرف بعد قليل .

والواقع أن استجابة المسيحيين فى هذا العصر لتعاليم الكنيسة ، كانت أمرا طبيعيا ، بعد غزوات البرابرة الذين نزلوا بأوربا ، واعتنقوا المسيحية وامتلأوا احتراما لرجالها ، مع عجزهم عن مزاولة النقد العقلى ، بحكم ما كانوا عليه من جهل وبداوة .

عودة الكنيسة الى مقاومة الروح الجديد

على أن انقلابا قد شمل مرافق الحيـــاة فى أوربا كلهـــا ، أواخر العصر المدرسى ، فنهضت الـكنيسة لمقاومة الجامح من التيارات العقلية ومطاردة أهلها ، حتى عاقت شيوع المعرفة الجـديدة ، وأطفأت نورهـا بالدم .. ! وعندما بدأت حركة الإحياء العلمى ، بدأت حركة انحلال خلقى كان على الـكنيسة أن تقـاوم أتباعه اتقاء لشره ، وحرصا عـلى تجنب ما ينتظر أن يسفر عنه من تقويض الدين والقضاء على نفوذ رجاله .

مذبحة الالبيين (الالبيجيين)

وفى مطلع القرن الثالث عشر ، نضج نظـام الـكبح ، ففى سنة ٢٠٨ مهـد إنوسنت الثالث لنظام محاكم التفتيش ، وفى العـــام التالى شرع دى مونفورت De Monfort فى قتال الألبيين (الألبيجيين Albigeois) بتحريض من البـابا إنوسنت الثالث ، وفى نفس العـام (١٢٠٩) أصـدر مجلس أفينون Avignon قرارا دعا فيه القساوسة إلى مطالبة السلطة المـدنية باستئصال الهرطقة ! وهـدد البابا إنوسنت كل أمير يرفض الاستجابة لهـذه الدعوة بإصدار قـرار الحرمان ضده . وبعد ستة أعوام (١٢١٥ م) قرر مجمـع « لاتران » أن يقسم كل حاكم يطمع فى أن يكون فى عـداد المؤمنين ، بأن يجـاهد ما وسعه الجهـــاد ، حتى يستأصل من إقليمه من تسمهم الـكنيسة بالهرطقة . ولنعد إلى الحـديث عن مذبحة الألبيين :

فشا الإلحاد فى لنجيدوك فى الجنوب الغربى لفرنسا ، على يد الألبيين من رعايا أمير تولوز ، وكان هذا فى عهد إنوسنت الثالث الذى بلغت البابوية على يديه أوجها ، فأشار على أميرهم أن يستأصل الهرطقة من إمارته ، فأبى الأمير أن يذعن لمطلبه ، وعندئذ نهضت الكنيسة لإبادة الحركة واستئصال أعوانها ، فأعلنت غفران كل ذنب ارتكبه من يجاهد للقضاء عليها ، وصبت عذابها على أعدائها ولو كانوا نساء أو أطفالا ، وتعقبتهم شنقا وحرقا وإعداما ، حتى انتهت الحروب الدامية التى أثارتها باستسلام الألبيين ، وإن بقيت آثار الهرطقة قائمة فى نفوسهم !

استسلم الألبيون فى عام ١٢٢٩ م وخضع للكنيسة أمير تولوز ، وكان أخطر ما أفضت إليه هذه المعارك الطاحنة ، أن أدخلت الكنيسة فى مبادئها العامة هذا المبدأ : يحتفظ الحاكم بعرشه ، متى قام بواجبه فى استئصال الإلحاد ، فان تردد فى الاستجابة لأمر البابا باضطهاد الملحدين ، أكره على الطاعة وصودرت أملاكه وبيعت لأعوان الكنيسة ، وعرض نفسه للاعتقال والإذلال ؛ وبهذا أقر البابا نظاما إلهيا تيوقراطيا تخضع فيه كل مصلحة لواجب العمل على حفظ الدين من كل أذى يمسه ..

وسنرى أثر هذا المبدأ الخطير فى تاريخ الحرية الدينية والتقدم العلمى فى الفصول التالية ، ولا سيما ما اتصل منها بمحكمة التفتيش .

تعقيب

نرى مما أسلفنا أن الكنيسة قد نفرت فى عصورها الأولى من

اضطهاد خصومها ، واستجابت لمبادىء الدين المسيحى الذى نزل مبشرا بالحب داعيا إلى توخى الحسنى حتى فى معاملة الخصوم والمعتدين . وأيد هذا النزوع ، شعور رجال الدين بحاجتهم فى عصرهم الأول إلى سيادة مبدأ التسامح ، لأنهم كانوا مضطهدين من جمهرة الناس وأكثر الحكام على السواء ، فلما تهيأت لهم السلطة التى تمكنهم من اضطهاد خصومهم ، نسى المتزمتون منهم مبادىء دينهم السمح الكريم ، ونزعوا إلى التنكيل بكل من عصى أمرهم أو خالف رأيهم ! ووجدوا فيما ورثوه عن بنى إسرائيل ، وأخذوه عن أمثال القديس أوغسطين ما أغراهم بالاضطهاد ، وأيد سياسة النزاعين إلى الكبح والتنكيل من الأباطرة والكهان على السواء . !

ومهدت مذبحة الألبيجيين لقيام محكمة التفتيش التى أثارت الهلع فى العالم الكاثوليكى طولا وعرضا ، فلنقف عندها قليلا :

— ٤ —

محكمة التفتيش
فى العالم الكاثوليكى

نشأة محكمة التفتيش ـ من نظام محكمة التفتيش ـ محكمة التفتيش فى أسبانيا ـ لماذا انتصر الاضطهاد على الاسلام فى أسبانيا ـ التفتيش على خصومها ـ من آثار محكمة التفتيش ـ من وجوه التعذيب عند محكمة التفتيش ـ اثارة الالم والهلع في النفوس ـ احصاء ضحايا محكمة التفتيش ـ بين اضطها الحقيقة العلمية والعقيدة الدينية ـ تدرج الكنيسة من الرحمة الي التنكيل.

نشأة محكمة التفتيش

جندت الكنيسة أصحاب السلطة الزمنية فى خدمة تعاليمها ، والتمكين لإرادتها ، بالإجراءات التى انتهت إليها بعد إبادة ، الألبيجيين ، واستئصال حركتهم على النحو الذى عرفناه فى الفصل السالف ، ولكن الكنيسة لم تقنع بذلك ، واخذت تتعقب الهرطقة فى مظانها السرية (١) إذ ليس يكفى القضاء عليها بالعنف حين يستفحل أمرها، ولا النص على إشراك السلطة التنفيذية فى إبادتها ، متى ظهرت واستشرى داؤها ، وإذن فلتأخذ الكنيسة حذرها ، فترصد عيونها يفتشون عن خصومها ، وتقيم المحاكم لتروع الملحدين بصرامة أحكامها ، . . .

وقد عهدت الكنيسة إلى آباء الدومنيكان أداء هذا الواجب الدينى الجليل ،

---

(١) استعنا بكتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة فى الشطر الاول من حديثنا هذا عن محكمة التفتيش ، والشطر الاول من حديثنا عن حركة الأصلاح الديني

وأنشأ البابا جريجورى التاسع فى عهد لويس التاسع ملك فرنسا محكمة التفتيش أو ديوان التحقيق Inquisition عام ١١٢٣ م ، ومكن لهذا النظام أمر بابوى أصدره إنوسنت الرابع عام ١٢٥٢ م وضبط به نظام الاضطهاد كجزء رئيسى من الكيان الاجتماعى لكل مدينة أو دولة ! وكانت هذه أبشع أداة لكبح التفكير النزيه والضمير الحر ، لم يعهد التاريخ لها نظيرا .

من نظام محكمة التفتيش

وقد اختير الرهبان ووكل إليهم السعى باسم البابا لاكتشاف الملحدين ، وكانوا بحكم عضويتهم فى ديوان التحقيق أصحاب نفوذ واسع النطاق ، لا يخضعون لرقابة أحد ولا يسألون عما يفعلون ، وتعاونت السلطات التنفيذية على إقرار هذا النظام ، فسنت القوانين الصارمة للتنكيل بالمارقين ، وتساوى فى هذا أهل الغفلة مع أحرار الفكر من الحكام ! وحسبنا شاهدا على هذا موقف فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر ، فقد شرع القوانين التى تقضى بإهدار دم الملحدين ومصادرة أملاكهم ، وإحراق غير المرتدين إلى الدين ، وسجن من تاب وعاد إلى اعتناق دينه ، وإعدام من عاد فارتد ملحدا . . . إلى آخر ما انتهى إليه ، مما لا يتفق مع رجل اشتهر بحرية التفكير .

وقد توطد هذا النظام وشاعت المحاكم حتى غطت العالم المسيحى الغربى بشبكة لا سبيل إلى اتقائها ، وكان أعضاؤها فى شتى البلاد على اتصال وتعاون يهدف إلى تحقيق مهمتهم الخطيرة ، وإذا كانت انجلترا قد أفلتت من

براثن هذا النظام ، فان حكومتها فى عهد هنرى الرابع والخامس ، قد قمعت الهرطقة باستعمال الخازوق تحت تمثال معين (عام ١٤٠٠ ، وقد تقرر إلغاء هذا النظام عام ١٥٣٣ وأعيد فى عهد مارى ثم أبطل فى عام ١٦٧٦ م)

محكمة التفتيش فى أسبانيا

أما فى أسبانيا فقد نهضت محكمة التفتيش (القديمة فى أراجون) بمقاومة الألبيين - على ما عرفنا منذ حين - فلما انتهت من قتالهم بإلزامهم طاعة الكنيسة ، ولت وجهها شطر اليهود ، وصبت عليهم العذاب ألوانا ، متذرعة بأتفه الأسباب وأوهن الاتهامات ، واستجابت إيزابيلا وزوجها فرديناند إلى نصح راهب دومنيكى يتقد تعصباً - هو توركويمادا Torquemada - والتمسا من البابا سكستوس الرابع إصدار مرسوم بإنشاء محكمة التفتيش ، فنشأت هذه المحكمة فى قشتالة فى عام ١٤٧٨ ثم فى اشبيليه وغرناطة وغيرها من مدن أسبانيا بعد ذلك .

وقد استنفدت الكنيسة جهدها فى إقناع المسلمين المقيمين فى أسبانيا ، لكى يرتدوا عن دينهم ويعتنقوا المسيحية ديناً ، وعلى غير جدوى ما بذلت من جهود ، فاستجمعت محكمة التفتيش كل قواها ، واعتصمت بالجرأة والتعصب ، وصبت عذابها على المسلمين فى غير رفق ولا عدالة ، حتى اعتنق النصرانية من خار فى ميدان الكفاح ، وهاجر من حار بين التمسك بعقيدته ، واحتمال آلام العذاب وفى عام ١٦٠٩ و ١٦١٠ تم جلاء ألوف المسلمين عن أسبانيا ، بعد أن أغرقوا

بدمهم أرضها ، وكتبوا بمقاومتهم أنصع الصفحات فى تاريخ الجهاد فى سبيل الله.

لماذا انتصر الاضطهاد على الاسلام فى أسبانيا

انتصر هذا الاضطهاد الدامى ، فى مقاومة الإسلام والتنكيل بأهله فى أسبانيا ، لأنه كان من وقدة العنف بحيث لم يبق من أتباع الدين أحدا ، إنه لم يقاوم فكرة الإيمان من حيث هى كذلك ، ولو نزع إلى شىء من هذا لكان الفشل مصيره المحتوم ، ولكنه أبقى على مجال الإيمان ، وحاول أن يغير مجراه ، فحوله فى نفوس الناس من الإسلام إلى المسيحية ، ولم يكن هذا بالشىء الهين اليسير ، ولكن الاضطهاد الدامى قد حاول أن يحصد الإيمان الإسلامى فى قلوب أهله ليغرس مكانها الإيمان المسيحى ، قد أخفق فى تحقيق غايته ، مع الكثيرين الذين أبوا الإذعان لما أريد بهم ، فسلط الاضطهاد عليهم كل ويلاته وطاردهم حتى غادروا البلاد إلى حيث يجدون الأمان . . ! ونشأت الأجيال التالية على الإيمان بالمسيحية . .

أساليب محكمة التفتيش مع خصومها

وكان من بين الوسائل الفعالة فى مطاردة المارقين ، « فرمان الإيمان » الذى جند الناس فى خدمة ديوان التحقيق (أى محكمة التفتيش) وحتم على كل امرىء أن ينهى إلى مركز الديوان فى غير تباطؤ ، ما يترامى إلى سمعه من شأن الملحدين ، وللمقصرين عقابهم الدنيوى والدينى معا ، ومن أجل هذا لم ينج أحد من اشتباه جيرانه ، وإساءة الظن به حتى فى نطاق أسرته ، ولم يكن ثمة أبرع

من هذه الحيلة الماكرة فى قهر السكان جميعا ، وقمع نزعاتهم الحرة وشل تفكيرهم الطلق ، وردهم إلى الطاعة العمياء ، لأنها رفعت التجسس إلى مرتبة الواجب الدينى الخليق بالإكبار !

أما الطريقة التى اتبعت فى محاكمة المتهمين بالهرطقة فى أسبانيا ، فكانت تنكر كل طريقة معقولة لتوكيد الحقيقة ، فلم يكن المتهم بريئا حتى يثبت اتهامه ، بل اعتبر كل متهم مذنبا حتى تثبت براءته - إن كان هذا ممكنا ! ومن ثم وكلوا إليه عبء التدليل على براءته . . ! وكان قاضيه هو المدعى عليه ، وكل من تقدم للشهادة ضده ، قبلت شهادته ولو كان من أرباب السوابق ، كانت قواعد ادعاء الشهود عليه مرنة طلقة ، وعلى عكسها كانت القواعد التى وضعت لرفض شهود الدفاع ، من حق اليهود والمغاربة والخدم والأقارب إلى الدرجة الرابعة ، أن يقدموا ضد المتهم أدلة تثبت إدانته ، ولكنهم ممنوعون من الشهادة فى صالحه ! والمبدأ الذى اعتنقته محكمة التفتيش كان يقول : لأن يدان مائة بريء زورا وبهتانا ، ويعانون العذاب ألوانا ، خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد . . ! ومن ساهم فى تقديم الوقود الذى يحرق به الملحد فقد استحق المغفرة ! على أن المحكمة مع هذا ، كانت تشفق على نفسها من أن تتهم يوما بالقسوة الصارمة ، إذ كانت تتقى الحكم بإهراق الدم ، فلا تحمل تبعة الإعدام على « الخازوق » أو نحوه ، فكان القاضى الإكليركى يعلن أن السجين ملحد لا أمل فى توبته ، ثم يسلمه إلى السلطات الزمنية ، ويلتمس عندها التزام الرحمة والرفق فى معاقبته . . ! على ما عرفنا من قبل . وكان المعروف أن السلطة الدنيوية لا تستجيب لهذا

المطلب ، بل لا تملك إلا إعدام المتهم بالهرطقة فى مدة لا تتجاوز الأيام الستة ، وإلا اتهمت بالعمل على ترويج الإلحاد . . ! وقد كان القانون يلزم جميع الأمراء والموظفين بالإسراع فى تنفيذ العقاب ، فيمن أسلمهم إليه ديوان التحقيق محرومين من الكنيسة .

من آثار محكمة التفتيش :

أشاعت هذه المحاكم روح الصرامة والقسوة فى نفوس الناس ، وكان لطريقتها فى الاضطهاد والتنكيل ، تأثير بالغ السوء فى فقه القانون الجنائى فى أوربا كلها ، ويرى الأستاذ « لى » Lea مؤرخ ديوان التحقيق ، أن أعظم الأخطار التى نجمت عن محكمة التفتيش ، ربما بدت فى تقليد أكبر شطر فى أوربا لطريقتها ، حتى أواخر القرن الثانى عشر ، فى معاملة من كان موضع اتهام ويرى « جيبون أن كراهية الإلحاد ، كانت نوعا من الجرائم المعدية ، وأنها نشأت عن نظرية الخلاص على ما أسلفنا من قبل ، بل إنها أضرت بقيمة الحقيقة فى نظر الإنسان فأصبح من المشروع بل من الضرورى اتخاذ كل وسيلة تؤدى إلى تقوية المعتقد الدينى ، بالغا ما بلغ زيفها وخداعها ! أما تقدير الحقيقة لذاتها فانه لم يحتل مكانه واضحا فى عقول الناس إلا فى مطلع العصر الحديث ـ فى القرن السابع عشر .

وقد ساعدت هذه المحاكم على إفساد الأخلاق ، إذ طالما أدى حسد العلماء بعضهم لبعض ، إلى اتهامات لا يبررها سند من الحق ، وقد راح ضحية هذا

الحسد الكثيرون ، ولم يكن هذا يبدع على محكمة يدرك قضاتها خطأ الاتهام وتداعيه ، ولا يمنعهم هذا الإدراك من إدانة المتهم ..!

صور وجوه التعذيب عند محكمة التفتيش

ولم يكن الغرض من التنكيل بالملحدين وإعدامهم ، مجرد التخلص من شرورهم ، بل كان يهدف مع هذا إلى إيثار الفزع فى نفوس الذين يوسوس لهم الشيطان بالمروق ، ويرمى إلى أن تتكفل الصرامة بتطهير القلوب من أدران الهواجس وحفظ الناس فى أمان ، ولم يجر الإعدام على وجه من السرعة يكفل اتقاء العذاب الممض والألم المبرح ، بل جرت العادة بأن يحرق الملحدون أحياء ، وبأن تكون النار التى تلتهم أجسادهم بطيئة لا تأتى على ضحيتها دفعة واحدة ! وكانوا يبررون إطالة العذاب على هذا النحو ، بأنه يتيح للمتهم فسحة من الوقت ، يستطيع أن يعلن فيها توبته ..! وهذا الإحراق تسبقه مراحل من التعذيب بالكى بالنار ونحوه تختبر فيها صلابة العزم وعمق الإيمان وقوة الإرادة، وهذا الأسلوب فى اختبار المتهمين ، قد حدده أمر بابوى أصدره إنوسنت الرابع ، وأعاد توكيده كليمان الرابع فى أمر بابوى آخر ؛ وقد جرى العرف بين رجال ديوان التحقيق ، على أن يواصلوا تعذيب الملحد الذى يقر بذنبه ويعترف بخطيئته ، عسى أن يؤدى هذا إلى اكتشاف شركائه فى جريمته !

ويمثل هذا العذاب الجسمانى ،عوقب الذين زاولو التفكير الحر فى البحث عن الحقيقة .

ولكن كيف يسهل على اللغة أن تصور العناء العقلى الذى صاحب هذا العذاب الجسمانى . . ؟ إن من يرتكب فى أيامنا الحاضرة جريمة يعاقب

عليها القانون ، ينال ـ متى كان راشداً ـ ماقدمت يداه ، وينجو من العقاب كل من تربطهم به صلات رحم وقربى ، إلا إذا كانوا شركاءه فى جريمته ، وعلى غير هذا جرى الحال فى تلك الاضطهادات ، فى الأغلب والأعم ، فكانت تقضى القوانين بأن يحمل الأبناء والأحفاد فى سلسلة الأبناء ، تبعة الجرم الذى يدان به الآباء ، فيسلبون حقهم فى مباشرة الكثير من الوظائف ، ومزاولة الكثير من المهن . . !

ولم يكن الذين يلاقون على يد محكمة التفتيش حتفهم ، أشباه الذين راحوا ضحية الاشتغال بالعرافة ومزاولة السحر ؛ مجرد نساء شمطاوات لاوزن لهن ولاقيمة ، وإنما كان المتهمون بالإلحاد رجالا فى ربيع العمر ، تضطرم الحماسة فى قلوبهم ، وتتقد نفوسهم نشاطا ، وكان الذين ينطوون لهم على الحب والإعزاز ، لايساورهم الشك فى أن الآلام التى يكابدونها فى دنياهم ، ليست الا نذيرا بما ينتظرهم بعد الممات من آلام ممضة دائمة ؛ وكان هذا أوضح مايكون عند النساء اللائى استبد سلطان الأكليروس بقلوبهن ، وأحرج الشعور بآلام الآخرين صدورهن .

اثارة الألم والهلع فى النفوس

وكم كان مثيرا للهلع منظر الملحد وهو يسام العذاب ، وكم كانت آلام زوجه أو أمه أو ابنته مثارا لكل إشفاق ! إنها ترى من كانت تفديه بحياتها وماملكت ، يتلوى من فرط الألم ، ويرتجف من هول الفزع ، إنها ترقب النار وهى تزحف فى بطء على جسمه ، وتلتهم أعضاءه واحدا بعد آخر ، فاذا استوفى أنفاسه وأخفت

الموت صيحة ألمه الممض ،واستراح جسمه المعذب ، قيل لهذه البائسة : إن هذه هى إرادة الله الذى تعبدين ، وأن ليس هذا العذاب إلا صورة باهتة لعذاب سرمدى مقيم ينزله الله بأمثال هذا الملحد ! هذه نظرية ترددت فوق المنابر ، وحفرت فوق المذابح فى الكنائس ..!

وقد كان الملحدون فى أسبانيا ، يقادون إلى محارق النار ، وقد غطت أثوابهم صور الشياطين وآلات التعذيب ، لكى يذكر النظارة المصير الذى ينتظر كل مارق .

وكان هؤلاء التعساء يحسبون وهما ، أنهم إذا اعترفوا بذنوبهم عند الاستشهاد ، خلصوا أنفسهم من عناء العذاب ، وأنقذوا أطفالهم من المصير الأليم ! إذ كان الأبناء - على ما أشرنا - يؤخذون بذنب الآباء ، فتصادر أملاك هؤلاء ، إذا لم يقروا بذنوبهم ، ويندموا على ما قدمت أيديهم ، ويلجأوا إلى الله تائبين ، ومعنى هذا أن العقوبة تمتد حتى تصيب الورثة ..! وهو لون من الإجحاف برره البعض ببشاعة الجرم الذى أدين به الملحدون ! فقد اقتضت عدالة الله حين حوسب آدم على ذنبه أن يطرد مع ذريته ..! ومن ثم كان أطفال الملحد يتركون للفقر المدقع والعوز المطلق ، وعليهم سمات تكفلت إبان القرن الخامس عشر والسادس عشر ، بأن تحرمهم من كل رحمة، وتسد أمامهم كل باب للأمل ، وتطفىء فى وجوههم كل بريق للاحسان .. ! تشرد ذرية الملحد وتترك للجوع أو لحياة الدعارة ..! وكان هذا من غير شك أمض الآلام التى عاناها هؤلاء الشهداء ، فكان الأمل فى النجاة من هذا الشر

المستطير ، أكبر البواعث إغراءاً بالارتداد والاستجابة لتعاليم الكنيسة .

وقد اعتمد إنوسنت الثالث مصادرة أملاك الملحد ، بحجة أن الشريعة الإلهية كثيرا ما تحاسب الأطفال على خطايا آبائهم ! وأيد الاسكندر الرابع هذا الزعم ! ومع هذا فقد كان من حق الأبناء أن يحتفظوا بميراثهم ، متى خانوا عهد آبائهم وأفشوا أسرارهم ، وهدوا رجال التحقيق إلى أمرهم ..!

وقد جرت العادة مع رجال محكمة التفتيش ، أن يعلنوا قبل أن يباشروا مهمتهم فى منطقة ما ، غفران الذنوب لكل من أقر بذنبه ، وعدل عن إلحاده فى ظرف ثلاثين أو أربعين يوما ، وعندما أنشىء أول ديوان للتحقيق فى بلاد الأندلس ، أدى هذا الإعلان - فيما يقال - إلى أن يعدل عن الإلحاد سبعة عشر الفا

احصاء ضحايا محكمة التفتيش

غرقت أوربا فى بحر من الدماء ، على يد محكمة التفتيش ، وبفضل ضغط الرأى العام الذى كان يهيمن الأكليروس على توجيهه ، وقد بزت الكنيسة الرومانية غيرها فى أنحاء أوربا فى إهراق الدم البرىء ، وإن لم يكن من الميسور تكوين فكرة صحيحة دقيقة عن عدد الشهداء الذين راحوا ضحية عسفها واضطهادها ، وليس من اليسير أن نتصور مدى العذاب الذى عانوه ، وحسبنا أن نسوق بعض الأرقام للدلالة على روعة هذا الاضطهاد الدامى ، معتمدين على المؤرخ لورنتى Llorente الذى أتيح له البحث بمطلق الحرية فى « أرشيفات

محكمة التفتيش فى أسبانيا

يقول لورنتى إن المحكمة وحدها قد قدمت إلى النار أكثر من واحد وثلاثين ألف نفس ، وأصلت أكثر من مائتين وتسعين ألفا عقوبات أخرى تلى الإعدام فى صرامتها ، وهذا الرقم لا يشمل الذين أودت بحياتهم فروع هذه المحكمة — الأسبانية - فى مكسيكو وليما Lima - بأمريكا الجنوبية - وقرطاجنه وجزر الهند الغربية وصقلية وسردينيا ، وأوران ومالطة . . ! وقد كان لورنتى نفسه ، سكرتيرا لديوان التحقيق ، وكانت لديه عند احتلال فرنسا ، جميع الأوراق السرية فى هذا الديوان ، ويقول « ليكى » معقبا على هذه الإحصائية إن القارىء يسره من غير شك ، أن يكون لورنتى قد بالغ فى أرقامه ، وقد كشف پرسكوت Prescott هذا الغلو فى حالة أو حالتين ، يقول ماريانا Mariana إن أكثر من ألفى نسمة قد لاقو حتفهم حرقا على يد محكمة التفتيش فى عهد توركويمادا وحده! ويقول مؤرخ قديم - هو برنالدز Bernaldez - إن سبعمائة فرد قد أحرقو فى اشبيليه بين عام ١٤٨٢ - ٨٩ ، وأن باب محكمة التفتيش فى هذه المدينة قد وجد فى عام ١٥٢٤ وقد كتب عليه إن ألفا من اليهود قد التهمتهم النار منذ تقرر طردهم فى عام ١٤٩٢ . ! وقد حدد بعض المؤرخين عدد الذين أعدموا فى عهد تشارلس الخامس فى الأراضى الواطئة وحدها بخمسة آلاف نسمة ، بل ارتفع غير هؤلاء بهذا الرقم إلى مائة ألف . . ! وقد لاقى حتفه نصف هذا العدد - على أقل تقدير - فى عهد ابنه ! ففى السادس عشر من شهر فبراير من عام ١٥٦٨ أصدر الديوان المقدس قراراً بإدانة جميع سكان الأراضى الواطئة

والحكم عليهم بالإعدام متهمين بالهرطقة . . ! واستثنى من هذا القرار بضعة أفراد نص القرار على أسمائهم ! وبعد عشرة أيام أعلن الملك صحة هذا القرار وأمر بتنفيذه فى الحال ؛ فتقدم إلى المقصلة ملايين من الرجال والنساء والأطفال فيما يروى ليكى . وهذا كله بالإضافة إلى الذين راحوا ضحية الاضطهاد الآثم منذ أيام شارلمان ، حتى أيام أحرار الفكر فى القرن السابع عشر . . !

ولقد لبثت محاكم التفتيش قائمة فى العالم الكاثوليكى حتى القرن الثامن عشر ، بل ظلت قائمة فى أسبانيا شطرا من القرن الغابر ، بل إن إلغاءها لم يقض على التعصب الذى كان قد أدى إلى وجودها ، إذ ظل قائما فى الصدور بعد إلغائها ، ولم يتحرر العالم من عهده الظلوم ، إلا بعد معارك آثار عثيرها الأحرار على ما سنعرف بعد حين .

بين اضطهاد الحقيقة : العلمية والعقيدة الدينية

وإذا كان الاضطهاد قد أخفق فى مجال الحقيقة التى تكشف عنها البحث العلمى أو النظر الفلسفى - على ما عرفنا فى كتابنا عن النزاع بين الدين والفلسفة - فقد نجح فى مجال الاعتقاد الدينى ، فأخمت كل صوت ارتفع بالمقاومة ، وأثارت القسوة والصرامة فزع الناس وملأت قلوبهم هلعا ، فارتد أصلب الناس قناة ، أو تفانوا فى سبيل عقائدهم وراحوا شهداء ، أو ولوا الادبار ولم يمكنوا الاضطهاد من أن ينالهم بسوء - وكل هذه الحالات انتصار للاضطهاد ، إذ لا تجيء الأجيال الجديدة فى البلد الذى يزاول مثل هذا الاضطهاد المرير الدامى ، إلا وقد حقق الاضطهاد الآثم غايته ، وأقر فى قلوب الناس الدين المنشود .

تدرج الكنيسة من الرحمة الى التنكيل

أشرنا من قبل إلى أن إهراق الدماء كان موضع نفور ملحوظ من آباء الكنيسة الأولين ، وأنهم كثيرا ما ناهضوا النزوع إلى إعدام الملحدين ، وصبوا لعناتهم على من زاوله فى نفس الوقت الذى جدوا فيه صادقين فى مقاومة الإلحاد فى كل صوره ، ولكن هذا الشعور الكريم قد تلاشى فى أواخر العصر الوسيط ، ولم يبق من آثاره إلا احتيال الكنيسة على إبداء هذا النفور . عندما تكل إلى السلطة المدنية تنفيذ أوامرها ، وتلتمس الترفق فى معاملة الملحدين ، وهى تعلم أن هؤلاء الحكام المدنيين لا يملكون إلا المبادرة إلى تنفيذ هذه الأحكام الصارمة الآثمة ، فإن أبطأوا فى ذلك أكثر من ستة أيام ، عرضوا أنفسهم لقرار الحرمان (١) .

---

(١) نوع من العقوبة أخذه المسيحيون عن قدماء الوثنيين ، وفى العهد الذي كان للبابا الحق في تتويج الاباطرة ، كان الحرمان يسلبهم تيجانهم وعروشهم ، وقل استعمال البابا لهذا الحرم بعد القرن السادس عشر ، وقد حرم البابا بيوس الخامس ملكة الانجليز اليصابات عام ١٥٧٠ وأباح لرعاياها عصيانها ، وحرم البابا بيوس التاسع فى النصف الاخير من القرن الغابر ملك ايطاليا فكتور عمانويل لاستيلائه على أملاك الكرسي الرسولي ، أما حرمان غير الملوك والاباطرة فكان على نوعين ، حرمان المحروم من بعض المزايا الكنسية — متي كان جرمه بسيطا ، فان كان الجرم كبيرا ، طرد المحروم من عضوية الكنيسة — ان كان عضوا بها ، وحرم من معاشرة المسيحيين ، ودفن على غير الشعائر المسيحية ، وقد أيدت القوانين المدنية عقوبة الحرمان الكنسي ، فسلبت المحروم حقوقه المدنية فى وظائف الدولة وصادرت أملاكه ، وحرمته من الرتب ونحوها . وقد يصدر البابا قرار الحرمان ضد أمة كاملة ، وعندئذ تغلق كنائسها ويمنع الزواج بين أهلها ، ولا تبارك الكنيسة دفن موتاها ... الخ ولا يزال التاريخ يذكر اذلال كانوسا في القرن الحادى عشر ، شاهدا علي روعة الحرمان للخارجين علي طاعة البابا .

وفى الحق إن الأنسان ليعجب من هذا التطور الذى أدرك رجال المسيحية، كان الوثنى يقول عنهم فى القرن الأول : أنظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضا ، فما انقضت بضعة قرون حتى كان يقول : هل عرفت الدنيا وحوشا كهؤلاء الذين يفترسون كل من خالفهم دينا ..!

ولعل مما يثير فى النفس الألم الممض ، أن يكون شهداء هذه الاضطهادات الآثمة فى العادة رجالا لم تبرأ ساحتهم من أدران الاتهام الموجه إليهم فحسب، بل برهنوا باستشهادهم فى سبيل مبدئهم على أنهم خليقون بكل إعجاب ، ومن طريف المفارقات ، أن ترتكب هذه الجرائم باسم الدين الذى نزل مبشرا بالحب والحلم والعفو والتسامح . .

خضبت الكنيسة تاريخها بدم الشهداء ممن أسلفنا ذكرهم ، ولكن الفكرة المجرمة التى أودت بحياة الألوف من الشهداء فرادا ، قد أوحت بخوض غمار سلسلة من المذابح والحروب الدينية أدت إليها حركة الإصلاح الدينى ، وانتصار بعض الحكام لنزوع أهلها إلى بعث الدين الصحيح ومقاومة مفاسد الكنيسة ؛ وما من شك فى أن استيفاء البحث فى موضوعنا ، يقتضى الحديث عن اضطهاد الكنيسة لأتباع هذه الحركة .

اضطهاد البروتستانت

تهجم المصلحين على الكنيسة ، بواعث اشتداد النزاع بين المعسكرين — الحروب الدينية في المسيحية : بدء النزاع بين البابوية والبروتستانت — الحروب الدينية التي أثارها فيليب الثانى مذبحة سان بارثلميو — فرنسا بعد المذبحة — البروتستانت بين التسامح والاضطهاد — النزاع فى انجلترا منذ قيام الاصلاح الديني — تآمر الكاثوليك على نسف البرلمان — اضطهاد الكاثوليك حرب الثلاثين عاما — مبررات اضطهادات البروتستانت — حقيقة البروتستانت والاضطهاد — موقف المسيحية السمحاء من هذا الاضطهاد .

تهجم المصلحين على الكنيسة :

اجتاحت القبائل المتبربرة الدولة الرومانية فى عام ٤٧٦م، ولكنها استكانت لسلطان الكنيسة الروحى ، واعتنق الكثيرون من أفرادها الديانة المسيحية ، وسرعان ما تهيأ للبابا سلطان أخذ يتزايد حتى طمس نفوذ الملوك والأباطرة ومن إليهم من الحكام ، وهيمنت الكنيسة على أوروبا دينيا وعلميا، إلى جانب ما تهيأ لها من نفوذ سياسى، فلما استيقظ العقل الأوربى فى عصر النهضة، واحتل مكان الوحى الدينى الذى خفت صوته فى آذان الناس ، اجتاحت الكنيسة ومعتقداتها حملة عنيفة من النقد العقلى الهدام ، إذ أثار رواد الفكر الحديث مشكلة التسامح الدينى فى كل صوره ، وارتدوا إلى النصوص المقدسة وجدوا فى تفهمها ومعرفة أسرارها ، واستنفدوا الوسع فى الكشف عن سوءات الكنيسة وزيف تعاليمها وفساد رجالها ، وانتصر الكثيرون من الأمراء لهذه الحركة عسى أن تقوض سلطان الكنيسة وتقيهم طغيان رجالها الذين جاروا على نفوذهم ، واغتصبوا

الكثير من حقوقهم .

اتجهت الحركة الجديدة إلى إرجاع الدين إلى الكتب المقدسة ، ورفض التسليم باحتكار الكنيسة لتفسير نصوصها، وتمكين العامة من الاطلاع عليها ومحاولة تفهمها وسلب الكنيسة حقها المزعوم بصدد غفران الذنوب ، والاتجار بصكوك الغفران وثواب الآخرة وسعادتها، واتجه المصلحون إلى نقد الطقوس الدينية والاعتراف وعبادة القديسين وغير هذا مما هو معروف عن حركة الإصلاح الدينى فى عصر النهضة . وكان من أعلام هذه الحركة مارتن لوثر + ١٥٤٦ فى ألمانيا ، وزونجلى + ١٥٣١ وكلفن + ١٥٦٤ فى سويسرا وغيرهم من رواد الإصلاح الدينى إبان هذه الفترة . (١)

وليس يعنينا فى هذا الكتاب أن نعرض لتفصيل موقفهم وبيان وجهات نظرهم ، وحسبنا من تاريخهم أن نلم بوجوه المتاعب التى أنزلتها الكنيسة الكاثوليكية بهم ، ونعرف مدى الاضطهاد الذى عانوه ، ومبلغ النجاح الذى صادفوه ، وأظهر الحروب التى ثارت من جراء تعاليمهم ، ثم نعقب على هذا ببيان اضطهادهم لخصومهم الذين تمردوا على طاعتهم أو تصدوا لمقاومة تعاليمهم بعد

---

(١) سبقت هذه الحركة ، حركة اخرى فى القرن الرابع عشر ، أدى اليها ضعف البابوية واضمحلال نفوذها ، فظهر ويكلف Wycliffe وطالب باصلاح الكنيسة وتهجم على البابوية وفساد تعاليمها . وتأثر بآرائه جون هوس J. Huss وأخذ يبشر بتعاليمه في بوهيميا ويدعو الى البابوات الذين فسد سلوكهم وساءت تصرفاتهم ، فانعقد مجلس كنستانس عام ١٤١٤ بعد أن ابى هوس العدول عن آرائه ، وقرر ادانته بحجة أن تعاليمه لا تتفق مع تعاليم الكتاب المقدس ثم سلمه الى السلطة المدنية فتولت احراقه في عام ١٤١٥ وتابع مريدوه نشر مذهبه.

أن واتتهم السلطة وأصبحوا قادرين على التنكيل بمن لا يذعن لآرائهم ، فنقف بهذا على وجوه الاضطهاد فى معسكرات الكاثوليك والبروتستانت على السواء :

بواعث اشتداد النزاع بين المعسكرين :

كان الطبيعى أن تتميز الكنيسة غضبا لكل حركة ترمى إلى تقويض سلطانها وتهدف إلى تزييف رجالها ، ولم يكن من الميسور لرواد الإصلاح الدينى وقد آمنوا بفساد الكنيسة أن يتخاذلوا وينكصوا على أعقابهم متى نهضت الكنيسة لمقاومتهم ، ومن هنا كان الصراع الدامى الذى تجاوز نطاق الأفراد إلى معسكر الحكومات ، وحمل الشعوب على أن تكابد متاعب الحروب الدينية أعواما طوالا ؛ بل أكثر من قرنين من الزمان ، اضطرمت فيها نيران الحروب فى أوروبا طولا وعرضا . وحين نهض بالإصلاح الدينى رواده كان الناس يدينون بدين ملوكهم وحكامهم ولم تكن حرية الفرد فى اعتناق الدين الذى يراه قد عرفت بعد ؛ ومن هنا كان حرص رجال الدين من البروتستانت والكاثوليك ؛ على أن يكون حكام البلاد على دينهم ؛ وكان التوصل إلى هذا كثيرا مايقتضى خوض غمار حروب طاحنة ومذابح مروعة ؛ سنعرف أمرها بعد قليل .

وقد أحسن رواد الإصلاح الدينى قيادة الجماهير ، ونجحوا فى إثارة عواطفهم وإقناعهم بفساد الكنيسة وضرورة إصلاحها ؛ ووفقوا فى إثارة اهتمامهم برد الدين إلى أصوله وسرعان ما تحولت هذه البواعث العقلية إلى فيض من

التعصب والحقد، فاضطرم الثائرون حماسة لنصرة مذهبهم الجديد - بالغا ما بلغت تضحياتهم فى سبيل ذلك ، وإذا هاجت العواطف فى نفوس المؤمنين فليس لتمردهم على الأوضاع الفاسدة حد ينتهى عنده ، ولا لطغيانهم على خصومهم نهاية يقف عند بلوغها ، ومن هنا كانت حماسة الثائرين فى الدفاع عن مذهبهم ، وتماسكهم فى احتمال العذاب من أجله، وهى فورة أيدتها العدوى النفسية التى كانت تسرى بين الناس فى سرعة البرق الخاطف ، وزكاها الاضطهاد الذى كان الإمعان فيه يقوى المذهب الجديد ويزيد من شهدائه ! ومتى اجتمع المتمردون بعضهم ببعض اعترتهم الحماسة وازدادت وقدة واشتعالا ، وسرعان مايتغير سلوكهم حتى تتحول رقة الوديع المسالم ، صراحة تحمل صاحبها على جناح العنف البالغ إلى التنكيل بخصومه والسير على جثتهم فى غير تردد أو إشفاق ! وهذا ماسنراه عند استعراض هذه المرحلة من النزاع :

الحروب الدينية فى المسيحية (١)

بدء النزاع بين البابوية والبروتستانت :

عند ما أعلن لوثر على باب الكنيسة فى ألمانيا بطلان الصكوك التى كانت تبيعها الكنيسة للناس ، لتغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، أشار البابا على رجاله بأن يردوه عن غيه وزيغه بالحجة المقنعة ، فلم يزده جدلهم إلا

(١) استقينا من الأستاذين رفعت وحسونة فى « معالم تاريخ أوربا في العصر الحديث » بعض معلوماتنا عن وقائع هذه الحروب ، وأضفنا اليها ماآثرنا اضافته من غيره من المصادر .

إصرارا ، وامتـــدت ثورته إلى البـــابوية نفسهـــا فأعلن أنها بدعة خـــلا منها عهـــد الرسل الأولين . . ! وطالب بإخضاع الكنيسة للسلطات الدنيوية . . . فبادر البابا بإصدار قرار الحرمان ضده ، ولكن لوثر أحرق القرار على ملأ من النـاس ! وأعلن مجمع ورمس أنه طريد القانون وأباح إهدار دمه ، وحذر المؤمنين من قراءة كتاباته . . !

وتوارى لوثر مختبئا مدة عامين نقل فيهـــا الإنجيل إلى الألمانية، وفشت دعوته وصادفت هوى عند الكثيرين فى مختلف الطبقات ، وأفضت بالفلاحين إلى ثورة دامية أثارت قلق لوثر ، لأنها أغضبت الأمراء الذين كانوا يناصرونه فوق أنه كان يضيق بإهراق الدماء من أجل دعوته . ولبث الجـــدل قائما بين الكنيسة والبروتستانت حتى انتهى بحروب طاحنة توجها صلح أجزبرج عام ١٥٥٥ م ، هدأت الحال بعده نيفا وستين سنة ، تلتها حرب الثلاثين عاما .

ويعنينا من هذا الصلح إقراره حق كل أمير فى اختيار المذهب الذى يدين به أتباعه ، فمن أبى من رعاياه الإذعان لمذهبه جاز له أن يهاجر إلى حيث يشاء .

ومثل هـــذه الحروب الدينية وقعت فى سويسره ، حين نهض بطلب الإصلاح زونجلى ، وانتهت بما يشبه ما انتهت إليه فى المانيـا .

الحروب الدينية التى أثارها فيليب الثانى :

وفى أسبانيـــا كان فيليب الثانى + ١٥٩٨ من غلاة المتعصبين للكنيسة

الكاثوليكية ، فاستعان بمحاكم التفتيش وأطلقها فى الناس تأخذهم بالشبهات وتصليهم نارها فى غير رفق ولا رحمة ، واستنفد كل جهوده وموارد دولته فى استئصال البروتستانتية من العالم الأوربى ، فكان قتاله للهولنديين والإنجليز والهوجونوت فى فرنسا :

فأما عن هولنده ، فقد ضاق الشعب بمحاكم التفتيش التى تولته بعذابها وطالب بإلغائها ، وأعلن ثورته واجتاح بعض الكنائس وحطم ماضمت من صور وتماثيل ، فأرسل فيليب جيشه على ماهو معروف ، ولكن الثورة لبثت قائمة حتى انتهت بإلغاء محاكم التفتيش

فأما كفاحه مع الإنجليز ، فمرده الى أن البابا أصدر قرار الحرمان ضد ملكتهم البروتستانية « أليصابات » عام ١٦٧٠ ، وأباح لرعاياها حق التمرد على طاعتها ، وراح أعضاء جمعية اليسوعيين يقتحمون انجلترا ويكيدون لها ، فرأت التخلص من وريثة عرشها الكاثوليكية « ماريه ستورت » وكانت هذه موضع سخط من الرأى العام البروتستانتى يزكى سخطه عليها اشتراكها فى مؤامرات ترمى إلى اغتيال اليصابات ، فأصدر البرلمان قراراً باعدام كل من يأتمر بحياة مليكته ، أو تدبر المؤمرات من أجله - ثم دبرت أليصابات مع أعوانها مؤامرة ملفقة مزورة ، وانتدبت لجنة لمحاكمة ماريه ستورت من أجل ذلك ، وقررت إعدامها استناداً الى أدلة زائفة باطلة . . .

وعندئذ تحرك فيليب بأسطوله الضخم - الإرمادا - لملاقاة الانجليز ، فلما اندحر أسطوله وانتصرت البروتستانتية ، تزعمت انجلترا العالم البروتستانتى كله.

فأما فرنسا فقد فشت البروتستانتية بين شعبها، وتأثر الكثيرون بمذهب كلفن وسموا بالهوجونوت Huguenots ونهض الكاثوليك بتكوين « العصبة المقدسة» لمناهضة البروتستانتية ، ولبث يشد أزرها فى جهادها وحروبها حتى صرفته هزائمه عن تقديم العون لها ..

كانت هذه هى مهمة فيليب الثانى فى انتصاره للكاثوليكية وتأييده للكنيسة ، ومقاومته للبروتستانتينية فى مختلف بقاع الأرض ، وقد قضى نحبه بعد أن لطخه الدم نابا ومخلبا . . فلنعد إلى تفصيل ما يعنينا مما أسلفنا الإشارة اليه :

مذبحة سان بارتلميو فى فرنسا

ظهرت حركة الإصلاح الدينى فى فرنسا فى مطلع القرن السادس عشر، وسرعان ما فشت البروتستانتية واعتنقها أتباع كلفن ممن سموا بالهوجونوت فيما بعد ، كما أشرنا منذ حين ، فاعتزم هنرى الثانى أن يستأصل من فرنسا شأفتهم ، وتولاهم باضطهاد دام زادهم إيمانا بمذهبهم واستبسالا فى الدفاع عنه وحماسة فى التبشير به ، واتصلت جماعتهم بالسياسة تعين من ناصرهم من رجالها ، وتستعين بهم على التمكين لمذهبها .. وإلى مثل هذا اتجه الكاثوليك ، وقام نزاع انتهى بموجة من الفتن والحروب والمذابح ، لطخت بالدم تاريخ فرنسا إبان هذا العصر .

وأراد تشارلس التاسع + ١٥٧٤ أن ينشر الأمن فى ربوع البلاد فهادن الهوجونوت ، وأدنى زعماءهم من حضرته ، وتوج هذه الحركة بالرغبة فى تزويج

أخته من زعيم لهم ، فأثار هذا المسلك ثائرة الكاثوليك .

وفى ليلة الزفاف أقبلت جموع الهوجونوت تترى إلى باريس ، فأطلق الرصاص على زعيمهم ، وعندئذ وطن عزمه على التنكيل بمن حاول اغتياله ، وخشى الكاثوليك مغبة ذلك ، فعقدوا النية على أن يجعلوا عيد القديس بارثلميو (٢٤ أغسطس من عام ١٥٧٢ م) مذبحة يبيدون فيها خصومهم . وفى منتصف الليل دق ناقوس كنيسة « سان جرمان » مؤذنا ببدء المذبحة ، فاذا بأشراف الكاثوليك والحرس الملكى وجموع الجماهير تنقض على بيوت الهوجونوت والفنادق التى أوتهم ، وتأتى على من بها ذبحا ؛ فلما أصبح الصباح كانت شوارع باريس تجرى بدماء ألفين من النفوس ..! وتطايرت أنباء المذبحة المروعة إلى الأقاليم فاذا بها تستحيل بدورها مجزرة تجرى بدماء ثمانية آلاف من هؤلاء المساكين ؛ بل قيل إن هذه المذبحة قد أودت بحياة نيف وعشرين ألفا .. !

فرنسا بعد المذبحة

وقد أثار وقوع هذه المذبحة الغبطة والرضا فى أوربا الكاثوليكية كلها ، فكاد فيليب الثانى يجن من فرط الفرح عند ما بلغته أنباؤها ، وانهالت التهانى على تشارلس التاسع بغير حساب ؛ وكاد البابا جريجورى الثالث عشر يطير فرحا ، حتى أمر بأن تسك أوسمة لتخليد ذكراها ، وتوزع على وجوه الشعب وعيونه . .

وقد رسمت على هذه الأوسمة صورته ، وإلى جانبه ملك يضرب بسيفه أعناق الملحدين ، وكتب على الأوسمة « إعدام الملحدين » وأمر البابا - مع هذا - بإطلاق المدافع وإقامة القداس فى شتى الكنائس ، ودعى الفنانين إلى تصوير مناظرها على حوائط الفاتيكان ، وأرسل تهنئته إلى تشارلس

البروتستانت بين التسامح والاضطهاد

ولكن هذه المذبحة المروعة لم تضعف من شأن البروتستانت ولم توهن من خطرهم ، بل لعلها زادت وقدة العداوة فى نفوسهم ، وكان هذا ينذر فرنسا بشر مستطير ، فحاول هنرى الثالث + ١٥٨٩ أن يستميلهم بمرسوم منحهم فيه حريه العبادة وثمانية أماكن حصينة ، وبعض حقوق أثارت خصومهم ، فضاعفوا مسعاهم حتى نجحوا فى حمله على إلغاء هذا المرسوم . .

واستمرت المنازعات الدامية تطحن القريقين حتى أباد كل فريق الكثير من شيوخ خصومه ونسائهم وأطفالهم ، ودمرت بعض الكنائس والقبور والهياكل ، وتفككت فرنسا وأضحت جمهوريات صغيرة خربة تضم الكثير من الكنائس المتداعية والقبور المهدمة . . !

ولبث النزاع قائما يزداد وقدة واشتعالا ، حتى إذا كان عام ١٥٨٤ كان وارث العرش الفرنسى بروتستانتيا كلفنيا ، هو هنرى الرابع فيما سمى بعد ، وكانت العصبة المقدسة قد نشأت كما أشرنا منذ حين ، لاستئصال البروتستانتية من فرنسا ، ونشبت المعارك الطاحنة بين البروتستانت والكاثوليك ، وعلت

صيحة الأحرار من المفكرين والشكاك ، كما سنعرف عند الحديث عن التسامح الدينى فى فرنسا ، فتحول هنرى الرابع عن البروتستانتية وأصدر مرسوم « نانت » عام ١٥٩٨ م ، وفيه أباح للبروتستانت حرية العبادة فى كل البلاد الفرنسية مع استثناء باريس وبعض الأقاليم ، وقرر مساواتهم بالكاثوليك أمام القانون ، وحرم عليهم سكنى باريس وبعض المدن والمقاطعات ، وأباح لهم تكوين محاكم تشكل منهم ومن الكاثوليك للفصل فى قضاياهم ، وصرح لهم بعقد الاجتماعات الدينية والسياسية ، وقد ظلوا قوة حربية لها خطرها فى الحروب حتى جاء ريشليو ونزع إلى تقوية الملكية وإضعاف كل قوة تقف إلى جانبها، ومن هنا كان اضطهاده للبروتستانت فى فرنسا ، رغم أنه كان يحسن معاملتهم فى غيرها من البلاد ، فحاصر « لاروشيل » وقتل منها ألفا وخمسمائة بروتستانتى .

وفى عهد لويس الرابع عشر + ١٧١٥ بلغ عدد البروتستانت فى فرنسا مليونا ومائتى ألف نفس ، لهم ستمائة كنيسة يتبعها سبعمائة قسيس ، وقد أهلك منهم لويس الكثيرين بعد اقترانه بمربية أولاده الكاثوليكية المتعصبة ، ثم ألغى مرسوم « نانت » السالف الذكر ١٦٧٦ وسلبهم امتيازاتهم المشار إليها من قبل ، وخيرهم بين الهجرة أو الارتداد عن البروتستانتية ، فجلى عن فرنسا أربعمائة ألف أصاخوا إلى نداء ضميرهم ، ولاذوا بهولنده وانجلترا وبروسيا وأمريكا . .

ومع كل هذا لم يستطع أن يستأصل الإلحاد من بلاده ، إذ أصبح الهوجونوت

بعد إلغاء المرسوم السالف طريدى القانون مدة قرن كامل ، وكان رجال الدين فى فرنسا يبررون سياسة العسف فى اضطهاد هؤلاء البروتستانت بالآية الانجلية المشار إليها من قبل ، مع الاستعانة بحجج القديس أوغسطين فى تبرير اضطهاد المارقين الملحدين .

وفى عهد لويس الخامس عشر خفت حدة اضطهاد الهوجونوت ، ولكنهم كانوا معتبرين خارج القانون وممنوعين من الزواج بالكاثوليك ، حتى صدر قانون التسامح عام ١٨٨٧ ورفع عنهم الاضطهاد وإن كان قد حرمهم من مزاولة بعض المهن ؛ وسنعود الى الحديث عن هذا القانون عند الكلام على فولتير وغيره من دعاة التسامح الدينى .

النزاع فى انجلترا منذ قيام الاصلاح الدينى

وظهرت حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا فى مطلع القرن السادس عشر كذلك ، لبثت الكاثوليكية والبروتستانتية فى كفاح متصل ، وكلما اعتلى العرش ملك فرض مذهبه على شعبه ، وسام خصومه العذاب ألوانا ؛ وكابد البرويستانت والكاثوليك من جراء هذا الاضطهاد ويلا كثيرا ، حتى انتهى أمر هذه القلاقل المتلاحقة ، بانتصار البروتستانتية فى عهد أليصابات ، وتزعم انجلترا للعالم البروتستانتى على ما أشرنا من قبل ولكن النزاع قد تجدد حين اعتلى العرش جيمس الأول + ١٦٢٥ وانتصر للكنيسة الأسقفية ، فضاق به الكاثوليك من جديد ، فدبروا مؤمرة البارود التى أريد بها نسف البرلمان

الإنجليزى أثناء افتتاحه :

تآمر الكاثوليك على نسف البرلمان

وتتلخص المؤامرة فى أنهم استأجروا دارا مجاورة للبرلمان ، ووضعوا البارود فى مخزن كان يقع تحت قاعة اللوردات مباشرة ، وكان المقدر أن يتصل بالبارود شريط من النار يحترق بعد ربع ساعة من إشعاله ، واقترح بعضهم إبلاغ الكاثوليك من أعضاء المجلس نبأ المؤامرة حتى يتخلفوا عن حضور الاجتماع وأبى بعضهم ذلك ، وأدى الخلاف إلى انسحاب البعض واتصلت أنباء المؤامرة بالملك ، وسرعان مافتشت المحال المجاورة لدار البرلمان ، وفشلت المكيدة كلها قبل البدء بتنفيذها ، وأعدم مدبروها بعد عذاب مرير جسيم . .

اضطهاد الكاثوليك

وطارد الملك البيوريتان (غلاة المتطرفين من البروتستانت) وجرى على سياسة تشارلس الأول + ١٦٤٩ ، الذى وقعت فى عهده الحرب الأهلية (التى انتهت بانتصار البيوريتان على كرمويل) وإعدام الملك وتأييد المذهب البيوريتانى بعد نشأة حزبى التورى والهويجس اللذين ناهضا الكاثوليكية .

وفى عهد تشارلس الثانى + ١٦٨٥ ضاق أحد قساوسة الكاثوليك بالكنيسة الكاثوليكية ، ونزع إلى إقرار الكثلكة فى انجلترا وتولية اليسوعيين أمرها ،

وقيل إن اليسوعيين قد دبروا مؤامرة أرادوا بها إحراق لندن وذبح خصومهم من البروتستانت ، واغتيال الملك الموالى للكنيسة الأسقفية ، فقبضت السلطات على القس السالف الذكر مع بعض من اشتهروا بالتعصب من الكاثوليك ، وقدموا إلى المحاكمة جميعا ، ولكن القاضى اختفى أثناء المحاكمة، ثم عثر على جثته بعد ذلك ، فنجم عن هـــذا اضطهاد الكاثوليك فى عام ١٦٧٨ ، وهو اضطهاد لا ينفى ما عرف عن هذا العصر من نزوع الى التسامح .

حرب الثلاثين عاما:

وفى خلال القرنين الماضيين اللذين ألممنا فيهما بآثار الاضطهاد الدينى من خلال الحروب الدامية التى استغرقت أوربا وقعت حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ - ١٦٤٨ م) ، أدى اليها النزاع الدينى فى ألمانيا أول الأمر وفى غيرها من دول أوربا بعد ذلك ، وانتهت ببواعث سياسية جعلت فرنسا الكاثوليكية تحارب فى صفوف البروتستانت ، وفى خلال هذه الحرب عانى البروتستانت العذاب ألوانا وكابد الكاثوليك من أمر الاضطهاد أشكالا ، حتى انتهت الحرب بإعطاء كل أمير الحق فى اختيار الدين الذى يرى فرضه على رعاياه ! وتم الاعتراف رسميا بالمذهب الكاثوليكى واللوثرى والإصلاحى (مذهب كلفن وزونجلى) واستبعد ما عداه من مذاهب ، وتلاشت من العالم فكرة الحروب الدينية بعد ذلك ...

مبررات اضطهاد البروتستانت

هذه هى مظاهر الاضطهاد الذين لقيته البروتستانتيه بمختلف شعبها إبان

القرن السادس عشر والسابع عشر ، وهى ظاهرة طبيعية تلائم روح العصر الذى وقعت فيه ، وهو عصر ضاق فيه رجال الكنيسة الكاثوليكيه بتمرد رواد الإصلاح الدينى على سلطانهم ، واستخفافهم بكل ما كان موضع حرمه وقداسة عند رجال الكهنوت ، وكان هذا فى نفس الوقت الذى دبت فيه اليقظة فى أوربا وتفتحت فيه أذهان الناس فى شتى ميادين الحياة ، وكان الارتداد إلى الدين - كما يبدو فى نصوصه المقدسة - مظهرا من مظاهر النضج العقلى الذى يميز هذا العصر ، لم يكن بد من أن يحتدم الجدل بين هذين المعسكرين ، وأن تشتد وطأته حتى يستحيل إلى معارك دامية يستشهد فيها الكثيرون ، وحروب طاحنة تنهك الأمم والشعوب ، ولم يكن ثمة مفر من وقوع ذلك فى عصر يضطرم تعصبا وتدين الشعوب فيه بدين حكامها .

حقيقة البروتستانت والاضطهاد

على أن هؤلاء البروتستانت الذين انشغلوا عن الكنيسة الكاثوليكية وأبو أن يذعنوا لطغيانها أو يصبروا على فسادها ، ونزعوا الى مقاومة رجالها والكشف عن فساد سلوكهم ، وطالبوا بحق الإنسان فى الحكم الفردى والاطلاع على الكتب المقدسة وتفسير نصوصها . . أولئك الأحرار ظاهرا كانوا فى الحقيقة جنودا للاضطهاد . . . ! اعتصموا بالتزمت والتعصب ، وسلطوا كل قواهم للتنكيل بخصومهم ! كانوا يهاجمون الاضطهاد يوم أن كانوا فى حاجة إلى التسامح ، فلما استقرت قدمهم وتمكن نفوذهم ، استبدوا بخصومهم وساموهم العذاب ألوانا

وبهذا مثلوا نفس الدور الذى مر به خصومهم من الكاثوليك من قبل !

موقف المسيحية السمحاء من هذا الاضطهاد

ومن طريف المفارقات ـ مرة أخرى ـ أن ترتكب السلطات الدينية وأشياعها كل هذه الفظائع الدامية باسم المسيح الذى يقول لمريديه فى خطبته على الجبل « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات . . طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطشى إلى البر لأنهم يشبعون . . . طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم ، إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم ، فان قدمت قربانك إلى المذبح وتذكرت أن لأخيك شيئا عليك فاترك هناك قربانك ، كن مراضيا لخصمك . . . سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لاتقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين . سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم . وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم ، لكى تكونوا أنباء أبيكم الذى فى السموات ، فانه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين ، لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم ، فأى أجر لكم ؟ أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك ؟ وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون ؟ أليس العشارون أيضا يفعلون

هكذا ؟ فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل(١) » .

بهذا الحديث - وتتمته فى خطبة الجبل - بلغت المسيحية أوج كمالها ، وسمت فى مدارج الروحانية إلى أقصى الآماد ، وأحالت كدر الكفاح فى الدنيا نورا وصفاء ليس بعده نور وصفاء ، فأين من هذا السمو الروحى البالغ أوجه ، إجرام الكنيسة فى اضطهادها المرير الدامى الذى خضبت به تاريخ المسيحية السمحاء . . ؟ !

ولكن الذين حملوا الأناجيل نصيبها فى تبعة الاضطهاد الدينى فى المسيحية ، يقولون إن أتباع الاضطهاد من أمثال القديس أو غسطين ، قد استندوا فى نزوعهم نحو الاضطهاد ، إلى آيات وردت فى الانجيل ، كقول المسيح لحواريه : أجبروهم على اعتناق دينكم Compelle intrare - أو « لاتظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ما جئت لألقى سلاما بل سيفا فانى جئت لأفرق الإنسان من أبيه ، والابنة من أمها ، والكنة من حماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته (٢) ولكن من الإنصاف أن تقول إن الآيات التى أسلفناها فى عظة الجبل ، هى رمز المسيحية وطابعها الغلاب .

على أن قصة الاضطهاد لم تكمل فصولها بعد ، لأن رواد الإصلاح الدينى قد أبلوا فى مجال هذا الاضطهاد أحسن بلاء ! فلنشرح موقفهم على قدر مايسمح المقـــام :

---

(١) الاصحاح الخامس فى انجيل متى .
(٢) انظر انجيل متى - الاصحاح العاشر ، الآيات ٣٤ - ٣٦ .

الاضطهاد عند البرتستانت

نصيب العقل فى حركة الاصلاح الديني - الاصلاح والمنطق الدينى - بواعث الاصلاح الدينى - تبعات الكاثوليك والبروتستانت فى الدعوة للاضطهاد - دعوة لوثر للاضطهاد - موقف البروتستانت من احراق سرفيتوس - البروتستانتية وحركات التنوير - تعقيب .

نصيب العقل فى حركة الاصلاح الدينى

إذا كانت الكاثوليكية قد ناصبت حرية الضمير والفكر العداء ، وأصلت أهلها نارها فى غير رفق ، فقد احتذت البروتستانتية حذوها وإن كانت حاجتها إلى السلطة الزمنية قد قصت جناحها وعرقلت نشاطها ، وقد يبدو هذا مثاراً للدهشة لأن رواد هذه الحركة كانوا يلوذون فى أول أمرهم بمنطق العقل ويعتصمون بشريعته فى مهاجمة خصومهم من رجال الأكليروس ، والكشف عن فضائحهم وسوءات تصرفاتهم ، وكانوا يهاجمون الاضطهاد ويأبون أن يكون للكنيسة سلطان على ضمائر الناس وقلوبهم ، وقد خدعت البعض هذه الظاهرة وأعمتهم عن كنه القوى الخفية التى تسيرهم ، وظنوا وهما أن العقل كان رائدهم وأنه الهادى إلى حركتهم ، وسار فى ركبهم بعض من عرض للبحث فى دعوتهم ، فقالوا إن ثورتهم حركة تولاها مفكرون سبقوا زمانهم بما امتازوا به من سداد التفكير ونفاذ النظر ؛ وقد تخلف هذا الظن ولبث قائما فى عقول بعض المتأخرين من الكتاب ، فمن ذلك قول لافيس ورامبو

فى كتابهما عن « التاريخ العام » عندما عرضا لتفسير الإصلاح الدينى : إنه نشأ من قراءة الإنجيل ، وأدت اليه « تأملات فردية أورثها قلوب البسطاء عقل جريء » ولعل الأصح أن نقول مع بيورى ولوبون ومن إليهما من الباحثين ، إن حركتهم كانت حركة دينية وليست عقلية ، وأنهم كانوا رجال دين عبروا عن روح عصرهم وروح العصر السابق لهم ، ولم يكونوا رجال فكر سبقوا زمانهم ، ومن أجل هذا لازمتهم سوءات الحركات الدينية من تعصب ذميم لكل ما يألفون ، وضيق صدر بكل جديد .

الاصلاح والمنطق الدينى

نشأت حركة الإصلاح الدينى عن بواعث عقلية ، ولكن الاستدلال المنطقى ليس هو الذى أدى إلى نضجها ، وإنما قامت على عواطف وتدينات وجرت على منطق دينى مشبع بالمشاعر والعواطف لا تربطه بمنطق العقل صلات ! بل إن عناصر التأمل والتفكير فيه ضئيلة ، ولم يكن هذا الإصلاح فى بدايته دعوة إلى حرية التفكير ، بل كان مجرد انتقاد ينصب على تصرفات رجال الدين والتبشير بالتزام العمل بما تقضى به نصوص الانجيل ، وربط العقل بقيودها ، ومن تتبع هذه الحركه لاحظ أن البلاد التى بسط فيها الإصلاح الدينى نفوذه ، قد أخذ فيها الملوك مكان البابوات حقوقا وسلطانا ! وقد أتيح لكلفن أن ينشىء فى جنيف حكومة جمع فيها بين السلطتين : الروحية والزمنية ، وسلط قواه على الشعب حتى يدين بما يدين به المصلح .. ! إن فهم

هذه الحركة فى ضوء المنطق الدينى يتكفل بتفسير الغامض من ظواهرها ، والكشف عن سر الاضطهادات التى أنزلها زعماؤها بخصومهم من المتدينين ورواد العلم والفلسفة ، إذ ليس بغريب على من قاده خلق التدين وتسلطت عليه الحماسة الشديدة وكان شأن العقل فى تصرفاته ضئيلا ، أن يكون على خلق « كلفن » الذى كان لا يتردد قط فى إعدام من خالفه فى مذهبه ، ولا يستحى أن يقول إن الله يريد أن يقصى الإنسان الرحمة الإنسانية بعيدا عن قلبه عندما يعتنق الجهاد فى سبيله .!

بواعث الإصلاح الدينى

كانت حركة الإصلاح صدى لروح العصر ولم يكن لأهلها سبق عقلى على أهل زمانهم ، والذى ساعد عليها هو اندحار قوة البابا فى أوربا ونمو الملكيات القوية التى عملت على فصل الكنائس القومية عن روما ، وقد انتصر الإصلاح الدينى فى ألمانيا الشمالية ، لأن الأمراء انتصروا له ليفيدوا من مصادرة أملاك الكنيسة ونحوها . وهذا بالإضافة إلى أن سببه الرئيسى يرجع إلى فساد الكنيسة منذ زمان ، واهتمام البابوات بمصلحتهم الدنيوية ، وقد كان كل مفكر فى أوروبا يشعر منذ القرن الرابع عشر بهذا النقص ويعرف وجه الحاجة إلى إصلاح الكنيسة ، فظهور لوثر وأمثاله كان تعبيرا عن روح عصرهم وما سبقه . ولم تكن ثورة عقل متمرد على عقيدة ، بل كانت ثورة شعور واسع النطاق يناصب الكثلكة

العداء ، ومن أجل هذا كان من الخطأ أن يقال إنه مكن لحق الفرد فى إصدار الأحكام المستقلة ، وأنه أقر الحرية الدينية ، « فليس من شىء كان أبعد عن عقول قادة الإصلاح الدينى من التسامح مع النظريات المخالفة لآرائهم » وإذا كانوا قد قوضوا سلطان البابا ، فقد أحلوا مكانه سلطة الانجيل ، ولكنه كان الانجيل كما فهمه لوثر أو كما عرفه كلفن ؛ ولم تكن الحروب الدينية التى ثارت ترمى الى اقرار الحرية الدينية ، بل كانت نزاعا بين معتقدات دينية فيما يقول بيورى ولوبون وغيرهما من المفكرين .

تبعات الكاثوليك والبروتستانت فى أمر الاضطهاد

ولعل من الإنصاف للسلطات الكاثوليكية أن نقول إنها لم تناقض نفسها بما زاولته من اضطهاد ، لأن من حقها أن تحمى الدين وتذود عن تعاليمه كل عدوان وإن أخطأت سبيل هذا الدفاع ! أما السلطات البروتستانتية فان اضطهادها للعلم ، يتنافى صراحة مع المبادىء التى وضعها أهلوها أساسا لحركتهم فى الانشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية ، كإقرار المبدأ القائل بحق الحكم الفردى لكل إنسان .

ويضاف إلى هذا ثلاثة أمور ينبغى ألا نهملها عند تقدير التبعة التى يحملها كل من الطائفتين ، أولها أن البروتستانت لم يؤتوا من السلطان ما كان للكاثوليك ، وعندما تهيأت لهم هذه السلطة - على يد « كلفن » فى جنيف مثلا - لم يكونوا أقل وحشية من الكاثوليك ، وثانيها أن الكاثوليك إذا كانوا قد حرموا دراسة الحقائق التى اهتدى إليها علم الفلك الحديث فى أوروبا الكاثوليكية إبان

القرن السابع عشر والثامن عشر ، فان السلطات البروتستانتية قد أنكرت الحقائق التى كشفها علم طبقات الأرض وعلم الحياة والأنثروبوجيا ، وحظرت الجامعات الأمريكية تدريسها إبان القرن الغابر - فيما يقول هوايت A. D. White ، ولم يكن البروتستانت أقل تشبثا بالمعنى الحرفى للنصوص المقدسة من الكاثوليك ، وقد بلغ أمر هذا التعصب بكبيرهم « لوثر » أن اعتبر هذه النصوص فى معناها الحرفى الظاهر هى المصدر الوحيد للعلوم الطبيعية كلها مع أن العلم الطبيعى كان شعار الفلسفة والتعليم الحديث عامة فى عصر لوثر ، ومع هذا رفض التأويلات المجازية والصوفية ، وقرر أن العلوم الطبيعية أداة لخدمة التقوى والصلاح . . ! وإلى مثل هذا الاتجاه ذهب « كلفن » فيما يقول الاستاذ هوايت وغيره من المفكرين .

وثالث الأمور التى ينبغى مراعاتها عند تقدير التبعة التى يحملها الإصلاح الدينى فى فظائع الاضطهاد ، أن الإصلاح قد نهض وانتصر بعد اضمحلال نفوذ الكنيسة الكاثوليكية واندحار السلطان البابوى ، وتيقظ الأمم والشعوب ونزوع الناس إلى تحكيم العقل فى كل شىء ، فكان الطبيعى أن يكون اضطهاد المصلحين لخصومهم أخف حدة وأقل فظاعة .

حماسة البروتستانت للاضطهاد

أقرت البروتستانتية الاضطهاد مبدأ مشروعا لمقاومة الهرطقة وتوكيد الإيمان الصحيح ، وقد أكد لوثر هذا المبدأ فى خطاب له إلى فيليب أمير هس Philip of Hesse ووضع كلفن وبيزا Beza وجوريور Jurieu كتبا أيدوا فيها مشروعية الاضطهاد ، واستند نوكس Knox باسكتلنده إلى « العهد القديم » -

أى التوراه - وأعلن أن العدالة تقضى بإعدام الذين ثبتت عبادتهم للأوثان ، وأن من تهاون من الحكام والناس فى اضطهاد الملحدين عرض نفسه لغضب الله . وقد أقرت حق الحكام المدنيين فى معاقبة المارقين ، قوانين الإيمان فى سويسرا واسكتلندة وبلجيكا وسكسونيا .

وقد غلبت روح التعصب والاضطهاد أكثر المصلحين ، وعلا صوتها فى كل بلد انتصرت فيه حركتهم ، إذا استثنيت زعيمين ضاقا بالاضطهاد ونفرا من الكبح والقمع ، ونزعا إلى تأييد التسامح ، هما زونجلى Zwinglius وسوسينوس Socinus .

طاردت البروتستانتية بمختلف شعبها أحرار الفكر ، وتعقبت خصومها ومن خالفوهم الرأى ، فسلطت حقدها فى هولندة على ديكارت الذى مكن للوحى الدينى وأقر الإيمان أساسا لكل فلسفة يقينية ! وحظرت فى البلاد التى انتصرت فيها تدريس النظريات التى لا تقر بصحتها ، ونكلت بأهلها فى غير رحمة .

دعوة لوثر للاضطهاد

وإذا كان لوثر قد احتج على كبح الآراء وإحراق الملحدين ، فقد كان هذا يوم كان يخشى أن يكون مع جماعته ضحية هذا الاضطهاد الكنسى الدامى ، فلما أمن شر خصومه ، وقوى مركزه وتوطد نفوذه أعلن رأيه الصحيح ، فأوجب على الدولة أن تفرض مايبدو لها رأيا سليما ، وأن تستأصل الهرطقة لأنها رجس من عمل الشيطان ، وأوجب على الناس أن يطيعوا أميرهم فى أمور دينهم ودنياهم على السواء ، وصرح بأن غاية الدوله حماية الدين من المارقين ،

وجاهر بإعدام طائفة منكرى التعميد Anabaptists بالسيف بعد انسلاخها عنه ، وبهذا أدت عقيدة الخلاص إلى نتيجة واحدة عند الكاثوليك والبروتستانت على السواء !

موقف البروتستانت من احراق سرفيتوس

أما كلفن - الزعيم الثانى للبروتستانتية - فقد كان أشد تعصبا لآرائه وضيقا بمخالفيه ، وقد اتفق فى الرأى مع لوثر فى إقرار السلطة المطلقة للحاكم ، وانتصر لسياسة الدولة عن طريق الكنيسة ، فأيد بذلك الحكومة التيوقراطية التى يتولاها رجال الدين الذين يعملون بما يوحى اليهم ، بل أنشأ حكومة من هذا النوع فى جنيف فجمع بذلك بين السلطتين : الروحية والزمنية ، وتمكن بهذا من أن يسحق حرية الضمير والنظر العقلى وينكل بخصومه نفيا وحرقا وإعداما ، وموقفه من مصرع « سرفيتوس » أعدل شاهد على ما نقول ، فقد كتب سرفيتوس الأسبانى يهاجم عقيدة التثليث : الآب والابن والروح القدس ، وسجن فى ليون لأسباب كان منها دسائس كلفن ، ولكنه فر من سجنه ولاذ مسرعا بجنيف حيث يقيم كلفن حكومته ، فاعتقل وقدم للمحاكمة ، وأدين وصدر قرار بإعدامه حرقا عام ١٥٥٣ م . فاستخف الطرب المصلحين وباركوا بالإجماع هذا الاثم سوى رجل واحد برم به وأعلن رأيه متخفيا ! أثنى

ملانكتون Melanckton على هذا العمل كمثل طيب للأجيال التالية (١) . . ! وكتب بولنجر Bullinger وفارل Farel يشيدان فى غمرة من الفرح بهذا العمل المجيد ! ووضع بيزا Beza رسالة طيبة ذاد فيها عن هذا العمل ! وكان الرجل الوحيد الذى أعلن ضيقه بذلك ، هو كاستليو Castellio أو شاتيلون Chatillon ، فكان أول بطل للحرية ، سباق إلى مجال المذهب العقلى ، مع أنه تخفى تحت اسم Martin Bellins اتقاء لشر المتعصبين ! وقد اتصلت فى بدء حياته أسباب الصداقة بينه وبين كلفن ، ولكنه هاجم نظريته فى القضاء الأزلى ، وترجم الإنجيل إلى اللاتينية وتناوله بالنقد الحر وأهاب بالعالم المسيحى أن يتحرر من قيود التعصب ويعتنق مبدأ التسامح المطلق ، القائم على منطق العقل ووحى العدالة . ومن هنا كان ضيق كلفن به وحقده عليه ، فاستعاض كاستليو عن صداقته بصداقة زميله فى طلب التسامح « سوسينوس » .

ويصرح بيزا بعد مصرع سرفيتوس ، بأن كاستليو وسوسينوس كانا الوحيدين اللذين ضاقا بإحراقه ، ولكن « ليكى » ينكر صحة ذلك ، ويستند فى هذا إلى نصوص من بيزا نفسه ، ومن هلام Hallam الذى كشف فى كتابه « تاريخ الآداب » عن ثلاثة أو أربعة كتب أو رسائل كتبت فى هذا الوقت تأييدا للتسامح - فيما يقول الاستاذ ليكى Lecky .

---

(١) ولكن هذه الاجيال قد أحست بالمهانة لارتكاب هذا الاثم حتى شعر أتباع كلفن فى صيف عام ١٩٠٣ أنهم مضطرون لاقامة ضريح تذكارى لسرفيتوس ، تكفيرا عن خطأ كان خطيئة العصر كله

ومن المؤرخين من يقول إن ميل البروتستانتية للاضطهاد كان فى المراحل الأولى من حياتها ، وأنها ما لبثت أن نزعت إلى التسامح وبشرت بالحريه الدينيـة ، وأن كلفها بالاضطهاد فى أيامها الأولى قد ورثته عن الكنيسة الرومانية !

ونحن مع تسليمنا بأن البروتستانتية كانت بعد مراحلها الأولى أسبق إلى طلب التسامح والدعـوة للحرية الدينيـــة ، نرى أنها بدأت حياتها بمهاجمة الاضطهاد وسرعان ما ارتدت إلى التعصب وزاولت القمع بمجرد أن تهيأت لها سلطة تمكنها من ذلك !

البروتستانتية وحركات التنوير

لا تمثل عقائد البروتستانت حركة تنوير Enlightnment فقد عادى الإصلاح الدينى حرية النظر العقلى كما قاوم حرية الاعتقاد ، وكان العلم متى حاد عن ظاهر الأنجيل ، تساوى فى التصدى لمقاومته لوثر زعيم البروتستانت والبابا الرئيس الأعلى للكاثوليك ! وقد أخفق تطور العلم إخفاقا معيبا فى ألمانيا التى انتصر فيها ركب البروتستانتية .

وقد أقرت البروتستانتية بمختلف شعوبها - من لوثرية وكلفنية وإنجيلية - عقوبة الإعدام قانونا يخضع له كل من خالف عقيدتها ، وقد قاوم زعيمها الأول - لوثر - المذهب الأرسطاطاليس وسمى صاحبه بالخنزير الدنس الكذاب ، وقال عن كوپرنيكوس - وهو أول رائد عرفه تاريخ علم الفلك الحديث - إنه

أول منجم مأفون مصاب بمس ، ولم يكن الزعيم الثانى ـ كلفن ـ بأرحب صدرا من صاحبه وإن كان أقصر منه باعا فى مجال السباب ، فقد قاوم حرية الضمير والنظر العقلى ، ونكل بمن وقع فى يده من أهلها شر تنكيل ، ومن ذلك أنه أعلن تكفير كل من أنكر القول بأن الأرض ـ لا الشمس ـ مركز الكون ! فيما يروى هوايت وغيره من مؤرخى النزاع بين الدين والعلم .

تعقيب

شب الصراع الآثم بين الكاثوليك والبروتستانت ، وأنزلت الكنيسة برواد الإصلاح الدينى وأتباعهم عذابها الأليم فى غير رفق ، وأضرمت نيران الحروب التى زهقت فيها نفوس هؤلاء الرواد وأريقت دماؤهم ـ على كره من المسيحية السمحاء ، كما عرفنا فى الفصل السالف ، ولكن المصلحين أثاروا غضب الكنيسة بمبادئهم فى إقرار حق الحكم لكل إنسان ، ومقاومة السلطة الكنسية المستبدة . . . . قد أهملوا شأن العقل بعد المرحلة الأولى من جهادهم ، وانساقوا وراء « منطقهم الدينى » فأنكروا المبادىء التى نادوا بها ، وطاردوا خصومهم بنفس الروح التى طاردهم بها خصومهم من قبل . . ! ! جاهروا بالتعصب لمبادئهم ونزعوا إلى التنكيل بالخارجين عليهم ، وضاع فى عباب هذه الثورة مبدأ التسامح والحرية الدينية ، حتى نهضت للدفاع عنه بعض الشيع الدينية التى عدت فى نظر المصلحين الدينيين فى زمرة الخوارج المارقين . . ! وقد أيد قضيتهم فى الحرية الدينية دعاة الشك وأتباع المذهب العقلى كما سنعرف فى الفصل التالى :

التسامح الدينى

فجر التسامح الدينى

مساهمة الاصلاح الدينى في تأييد الحرية الدينية ـ فضل الصوصنية علي ابتداع الحرية الدينية ـ الفصل بين السلطتين عند منكرى التعميد ـ بدء التسامح في انجلترا ـ رواد التسامح في انجلترا ـ التسامح الدينى في فلسفة لوك ـ التسامح في انجلترا بعد القرن السابع عشر ـ تداعي الاضطهاد فى فرنسا بظهور الشك ـ رواد التسامح فى فرنسا ـ حملة فولتير على التعصب الديني ـ دفاع فولتير في قضايا التعصب : مأساة جان كالا ـ دفاع فولتير فى هذه المأساة ـ دفاعه فى مأساة سيرفين ـ حقيقة التسامح عند فولتير ـ موقف روسو من الاضطهاد التسامح المطلق في الثورة الفرنسية ـ مغزي تاريخ التسامح فى انجلترا وفرنسا ـ انتصار التسامح الديني فى ألمانيا ـ أثر ألمانيا في غيرها من الدول ـ قيام الحرية الدينية في اوروبا في القرن الغابر ـ أسباب اضطهاد اليهود ـ تعقيب .

أشرق التسامح وآذن التعصب بالمغيب ، يوم نضج وعى أحرار الفكر واشتد ضيقهم بالاضطهاد ، فتكتلت جهودهم واتجهت الى القضاء عليه بتقويض النفوذ الذى تهيأ لأهله ، وإخماد التعصب الذى اضطرمت فى قلوبهم جذوته ، وكان «الشك» أفتك سلاح شهره العقليون فى وجوه المتزمتين ، وحاربوا به بالرغبة فى الاضطهاد . فلنمهد لبيان هذا بكلمة عن مدى المساهمة التى قدمها رواد الإصلاح الدينى فى تأييد الحرية الدينية :

مساهمة الاصلاح الدينى فى تأييد الحرية الدينية

مهدت الطريق إلى الحرية الدينية ، مبادىء الإصلاح الدينى على غير

قصد من أهلها ، ومن غير أن يهدفوا مباشرة إلى تأييدها !

ولم يكن فى الإمكان أن تنتصر قضية الحرية على السلطه الدينيـة . ولـكن هـذه السلطة قد ضعفت بتعدد الآلهـة وكثرة السلطات اللاهوتيـة وزعزعة التقاليد الدينية بحركة النقد التى أثارها الإصلاح الدينى ، وهذا بالإضافة إلى أن السلطة الإكليركية العليا كانت فى الدولة البروتستانتية فى يد الحـاكم ، ولهـذا الحاكم مصالحـه الدنيوية وظروفه السياسية التى تضطره إلى العـدول عن تعصبه الدينى أحياناً .

على أن الثورة البروتستانتية فى وجه الـكنيسة ، كانت تستند إلى إقرار حق الحـكم الفردى وهو مبدأ الحرية الدينية ، ولـكن المصلحين قد اكدوا هذا الحق لأنفسهم وحرموه على غيرهم بمجرد أن صاغوا مذهبهم ووطدوا مركزهم ، وكان فى هذا التناقض الصريح فى موقفهم ما يوهن نفوذهم ويضعف سلطانهم ، إذ لمـاذا يخلع النـاس نير السلطة الـكنسية فى روما ، ليخضعوا لسلطة لوثر على حداثة عهده ...؟ إن التمرد على روما ينبغى أن يقوم على العقل وحده ، وما دام العقل أساس التمـرد فلن تقف الثورة عند لوثر أو كلفن أو غيرهما من الثائرين ، إلا إذا افترض الناس أن أحدهم يصدر عن وحى وألهام ! وإذا رفض النـاس الخرافات كما رفضها هؤلاء المصلحون ، فلا شىء قط ـ مـع استثناء سلطتهم ـ يمنع من رفض الخرافات التى تمسك بها دعاة الإصلاح ، على أن دعوتهم فى رفع احتكار الـكنيسة لتفسير الـكتاب المقـدس وإباحة حق تفهمه للنـاس جميعا ،

لفتت أنظار الناس اليه ، وإذا كانت دراسة الإنجيل لم تصادف قبولا فى الجامعات الألمانية حتى القرن السابع عشر » بل لم يجد الإنجيل بين الجمهور قراء كثراً قبل القرن الغابر ، فإن اتجاه الناس إلى دراسته وإن جاء متأخر ، قد أفضى إلى حركة من النقد كان لها أثرها فى إقرار الحرية الدينية، ومن ثم فى توكيد النظر العقلى ، وقد عاش النقد الإنجيلى فى جو پروتستانتى ، ومن هذه الناحية كان المذهب البروتسانتى أداة لإقرار كفاية العقل للتفكير وتوكيد النزعة العقلية ، وهذا هو الذى خدم قضية الحرية على غير قصد من دعاة الإصلاح - فيما يقول بيورى -

وقد مكن لهذه القضية وخدمها عن طريق مباشر طائفة من المصلحين اتهمها البروتسانت والكاثوليك بالإلحاد ، وأغفل الناس أمرها حتى أصبح الذهن لا يلتفت إليها إذا ذكر الإصلاح الدينى ، وهذه الطائفة هى « الصوصنية » ، فلنقف عندها قليلا :

فضل الصوصنية على ابتداع الحرية الدينية

« الصوصنية » طائفة من مصلحى الطليان الذين انشقوا على الكنيسة فى فى روما إبان القرن السادس عشر ، وأنكروا عقيدة التثليث وأقاموا مبدأ التوحيد فى المسيحية وأنكروا ألوهية المسيح ، ونسبوا الربوبية إلى الآب (وهو الأقنوم الثانى فى الثالوث الأقدس) ، فقاومت الكنيسة حركتهم وأفلحت فى قمعها ، وفر الكثيرون منهم متهمين بالهرطقة إلى سويسرا، ولكن المصلح المنشق على الكنيسة - كلفن - قد طاردهم بتعصبه الذميم فلاذوا بترنسلفانيا وبولنده فراراً ، وهناك أذاعوا عقيدتهم التى أقاموها على مبدأ التوحيد »

وقد صاغ عقيدة الصوصنية « فوستو سوزيونو » Fausto Suzziono الذى أطلق اسم « سوسينوس » Socinus علما عليه ؛ وقد كانت أصول الإيمان عند طائفته (١٥٧٤) تقضى بإنكار الاضطهاد ورفض القوة أداة لخدمة الدين وتوكيد عقائده ، وكانت هذه نتيجة طبيعية أدت إليها النظريات الصوصنية ، إذ كان أتباعها - على عكس لوثر وكلفن - يبشرون بحرية الضمير والتفكير ، ويلحون جادين فى منح كل إنسان حق الحكم الفردى فى تأويل الكتاب المقدس ، فمكنوا بهذا للنزعة العقلية التى كانت تعوز عقائد التثليث ، وساهموا بهذا فى الدعوة لحرية النظر العقلى وتوفير أسباب الطمأنينة لرواد الفكر الحديث .

وتحت تأثير الروح الصوصنى أعلن كاستليون السافوى Castellion of Savoy مبدأ التسامح فى رسالة شهر فيها بتعصب كلفن وحقده ، وندد بموقفه من إحراق سرفيتوس وسخر من ذلك الاهتمام الذى توليه الكنائس للمسائل الغامضة ، كعقيدة التثليث والقضاء والقدر ، وأعلن أن الدين إذا صاحبه الاضطهاد كان لعنة ومجلبة للمحن !

وقد طارد الصوصنية خصومهم فى بولندة فانطلقوا إلى ألمانيا وهولنده ، وكانوا وحدهم الممثلين لمبدأ التسامح ، فاعتنقه منهم فى ألمانيا الأنابابتست - منكرو التعميد - وهم طائفة دينية ثورية تابعت لوثر فى أول أمرها ، ثم لم يرقها منه اعتداله ولينه فانسلخت عنه ، وقاتلتهم الكنيسة الكاثوليكية قتالا داميا انتهى بسحقهم ؛ كما سلم بهذا المبدأ فى هولنده طائفة من أتباع أرمانيوس الهولندى الذين آمنوا بالإصلاح الدينى .

على أن مذهب الصوصنية وإن كان قد ساهم فى تحرير الضمير والنظر العقلى فقد شجع قيام الاتحاد الوثيق بين الدولة والكنيسة ؛ مع أن الاتجاه الذى يمكن لحرية الضمير والعقل ويرفع كل عرقلة فى طريق أهلها ، هو الفصل بين السلطتين : الزمنية والدينية ، وهذا هو الرأى الذى ذهب إليه جماعة الأنابابتست ـ منكرى التعميد .

الفصل بين السلطتين عند منكرى التعميد

لم يكن الرأى العام فى أوربا من النضج بحيث يسيغ مبدأ الفصل بين السلطتين ، إذ انعقد رأى الهيئات الدينية القوية على أن التسامح ليس إلا تغافلا ممقوتا ! وإن كان مبدأ الفصل قد عرف إبان القرن السابع عشر ، فى ركن صغير من العالم الجديد وراء الأطلنطى ، عند البيوريتان الذين طاردتهم الكنيسة الإنجليزية وحكومتها فأقاموا مستعمرات فى نيو إنجلند ، واعتصموا بالتعصب وطاردوا الإنجيليين والكاثوليك على السواء ، بل امتد تعصبهم إلى منكرى التعميد والكويكوز ؛ ولكن أحدهم ـ وهو روجر وليامز ـ قد أخذ عن أتباع أرمانيوس الهولنديين فكرة الفصل بين الدولة والكنيسة ، وأنشأ مقاطعة «بروفيدانس» وجعلها ملاذا للمضطهدين ، ووضع نظاما ديمقراطيا قرر فيه منع الحكام من التدخل فى الشئون الدينية ، وقامت مدن فى جزيرة رودس على هذا النمط ، وأيد تشارلس الثانى (ملك انجلترا) (عام ١٦٦٣ م) هذا الدستور بمرسوم أذن فيه لرعاياه بأن يدينوا بأى مذهب مسيحى يروق لهم . . ! وأن يباشروا حقوقهم السياسية كاملة غير منقوصة ، فكان روجر وليامز بهذا ،

صاحب الفضل فى إقامة أول حكومة حديثة ، زاولت التسامح الصحيح ، وقررت إقصاء الشئون الدينية عن متناول الحكومة المدنية .

وكان أنصار الحرية الدينية فى مختلف بقاع العالم المسيحى يجاهدون لإقرارها ، فينتصر التسامح حينا ويتلاشى أحيانا ، حتى اشتد ساعد أحرار الفكر وعلا صوتهم وآتت دعوتهم أكلها .

وقد كان نجاح التسامح الدينى فى تاريخ العالم البروتستانتى والكاثوليكى على السواء مرهونا بقيام المذهب العقلى ونموه ، وتقبل بعض الناس لدعوته ، لأنه قوض أسس القمع الشديد وهاجم نفوذ الذين يزاولون الاضطهاد ، وزعزع الأسس التى بنوا عليها دعوتهم .

بدء التسامح فى انجلترا :

وقد تجلت النزعة إلى حرية الفكر وتخليصه من القيود وتحريره من ضغط السلطات إبان القرن السابع عشر ، فيه اشتد النزوع الى اكتشاف الحقيقة ومهاجمة الحكم المبتسر ، وتقويض السلطة التى كانت لاتزال - برغم ماوجه إليها من حملات - مصدرا للحقائق . وقد مهد هـــذا كله لانهيار الاضطهاد بتداعى الأسس التى قام عليهـــا .

وفى هذا القرن انبعثت صيحات الحرية فى انجلترا طولا وعرضا ، واتجهت الهمم فى مجال السياسة والدين إلى العمل على تحقيقها ، وفى عهد تشارلس الأول + ١٦٤٩ نهض حزب البيوريتان على أكتاف المتطرفين من البروتستانت

وكثر أتباعه ، واضطلعوا بقتال الملك تحت زعامة كرمويل ليلزموه الإذعان لرأى الشعب ، ويحولوا دون إدخال المذهب الأسقفى وفرضه على الاسكتلنديين بالقوة .

وقد حاول كرمويل أن يقر سياسة التسامح ، وكان الإنجليز على خلاف ، ففريق المستقلين Independents الذى يناصر كرمويل كان يطالب بالتسامح ، ويرغب فى أن يمنح الكاثوليك حرية الاعتقاد ! وقد نجح فى عام ١٦٥٣ فى إقرار هذا الاتجاه ، وذهب كرمويل - مؤيدا من المستقلين - إلى أبعد من هذا ، فأقر التسامح على اليهود وأذن لهم بمزاولة عباداتهم . . . وأما المهتدون أو أتباع الكنيسة المشيخية « البرسبتريون » Presbyterians فقد كانوا يميلون إلى أن يقصروا حق التسامح على الذين يسلمون بأصول المسيحية ومبادئها الجوهرية (١) وقد حاولوا فى عام ١٩٤٨ أن يستصدروا من البرلمان قرارا بإعدام كل من بشر برأى يتعارض مع عقيدة التثليث والتجسد ، وبالسجن مدى الحياة لكل من بشر بمذهب أرمانيوس (١) البابوى أو بعقائد الكويكرز ، إلا إذا قدموا كفالة أو ضمانة بعدم تعليم هذه العقائد بعد (٢)

(١) هو كاهن هولندى مات عام ١٦٠٩ وقد أنكر نظرية كلفن فى القضاء الأزلى المطلق وقال بسبق اختيار الله لمختاريه

(٢) كان الهولنديون يواصلون جهودهم لقمع حرية الضمير ، وفي سنة ١٦٤٥ وجه برلمانهم الي البرلمان الانجليزى خطابا بحثه فيه على عدم التسامح مع أى طائفة أو شيعة دينية تتعارض تعاليمها مع مبادئهم ، ثم أذاع فى نفس الوقت منشورا يهاجم فيه التسامح وحرية الضمير !

رواد التسامح فى انجلترا :

وفى هذه المرحلة من الزمن نهض بالدعوة إلى التسامح ثلاثة من المفكرين البارزين هم هارنجتون Harrington وملتون Milton وتايلور Taylor . وقد أدرك أولهم أن الحرية السياسية لاتستقيم بغير حرية دينية مطلقة ، لأن الحرية الدينية تتضمن حرية الضمير ، وهذه تتضمن بدورها الحرية المدنية ، وتكون حرية الضمير متى تمكن الإنسان من مزاولة عباداته ومباشرة تعاليم دينه وفقا لإملاء ضميره وحده - من غير عائق أو تدخل من الحكومة

وإذا كان هارنجتون قد تحرى الدفاع عن حرية الضمير فى أوسع معانيها » فقد تصدى ملتون لتأييد هذه القضية والدعوة الى فصل الكنيسة عن الدولة وقد بدا هذا فى رسالته القيمة التى ذاد فيها عن حرية النشر (١)

وقد كان للفردوس المفقود Paradise lost عند ملتون أوفر حظ فى إيقاظ الحرية فى نفوس الناس . وأما دفاعه عن التسامح فقد أقامه على أساس أن قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد ، بالإضافة إلى أن الاضطهاد يعوق اكتشاف الحقيقة . . . (٢) الخ

ولكن ملتون مع هذا يستثنى الكاثوليك فى تطبيقه لمبدأ التسامح ! بحجة أن عبادتهم وثنية ، وأن « العهد القديم » قد نهى عن عبادة الأوثان

ثالث المفكرين السالفى الذكر كان تايلور ، ويعتبر كتابه Liberty of Prophesying

(١) أنظر رسالة Of True Religion, Heresy, Schism, Toleration ١٦٧٣

(٢) أنظر رأيه في كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة

مع استثناء كتاب شلنجويرث (١) - أعظم مساهمة قدمتها الكنيسة الإنجيلية فى الجهاد من أجل التسامح ، إن فيه دفاعا عن ، الكاثوليك ونزوعا إلى التسامح معهم ما لم يعلنوا جهرا أنهم يبيحون لرعايا الأمير الملحد أن يقتلوه أو أن يبشروا بعدم التعاون مع الملحدين ، أو يزعموا أن فى وسع البابا أن يغفر ذنوب المتمردين من رعايا الحكام ! والكتاب بعد هذا فيض من الرحمة والرقة يجرى بالخيال الخصب والعواطف الكريمة عذبا سلسبيلا . وهو يقيم حجته فى طلب التسامح على أن القضايا التى يقول بها رجال اللاهوت لا يسهل استنباطها من الكتاب المقدس ، فمن الخطأ البين أن يطالب الناس بالتسليم بها ، وعقيدة الرسل تتضمن المعتقدات التى يمكن التدليل على صحتها ، وكل خطأ يقع فيما وراءها من مسائل لا يؤثر على عقيدة الخلاص ، ومن هنا وجب التسامح مع من يخطىء فى مثل هذه المسائل الثانوية . ولكن تايلور قد وضع كتابه السالف وهو فى منفاه . ولما استعادت الكنيسة نفوذها تخلى عن بعض مبادئه ! وكان فى هذا ما يسيء إلى سمعته .

وفى الحق إن مرجع الفضل فى دفاعه عن التسامح إلى أنه يدين بالشك ، والشك لا يساوره إلا لأنه يدين بالعقل ويقول بكفايته ، وحسبه هذا أداة لتقويض التعصب والاضطهاد .

وقد استمرت الدعوة إلى التسامح طوال الفترة التى أعيدت فيها الملكية إلى

---

(١) Chillingworth, The Religion of Protestants وقد نشر عام ١٦٣٧م

تشارلس الثانى ، وبدت هذه الحركة فى مدرسة من أحرار الفكر فى لندن ، تهدف إلى التوفيق بين الشيع الدينية فى ضوء المنطق العقلى ، هى Latitudinarian School ، وقد حذت فى نزعاتها حذو شلنجويرث الذى أشرنا اليه من قبل . وأقامت هذه المدرسة دفاعها عن التسامح على أساس التمييز بين أصول الدين وفروعه ، فكتب جلانفيل Glanvill أحد أتباعها رسالة عن زهو الاستبداد بالرأى Vanity of Dogmatising بشر فيها بالشك الهدام وتسلل منه إلى طلب التسامح المطلق ، ووضع ثبتا بأصول المعتقد الدينى ، وأكد ضرورة التسامح مع غيرها من فروع .

وسرعان ماتسللت هذه الروح وبدت فى سن القوانين ، ففى عام ١٦٧٢ قدم تشارلس الثانى لائحة التسامح الدينى ، وفيها حرر الكاثوليك والبروتستانت من بعض ما كان يرهقهم من وجوه التضييق ، وإن كان البرلمان قد أكرهه على سحبها ! وقد كان حزب التورى Tories والهويجس Whigs - وكلاهما نشأ فى عهد تشارلس الثانى + ١٦٨٥ - يميلان الى الاضطهاد ، يسرف فيه الأول فيرغب فى اضطهاد كل من خالف مذهب الكنيسة الرسمية ، ويترفق الثانى فيقرر التسامح مع سائر المذاهب البروتستانتية ! وكلاهما يعادى الكاثوليك ! وبعد ثورة سنة ١٦٨٨ المجيدة أصدر البرلمان فى عام ١٦٨٩ قانون الحقوق الذى حرم فيه على الكاثوليك اعتلاء العرش الإنجليزى أو مزاولة عباداتهم ، وبهذا دانت انجلترا بالبروتستانتية رسميا . .

وفى نفس العام صدر قانون التسامح ، وبه أبيحت الحرية الدينية للمهتدين

أو البرسبتيريين Presbyterians والأبرشيين القائلين باستقلال الكنائس إداريا Congregationalists وأصحاب التعميد Baptists والكويكرز Quakers وحرمت الحرية على الكاثوليك والموحدين Unitarians وبقى مرسوم تشارلس الثانى قائما ضدهم ، وكانت هذه التدابير تجمع بين التعصب والتسامح ولكنها تساير روح العصر الذى صدرت عنه

التسامح الدينى فى فلسفة لوك :

ولكن الفيلسوف جون لوك + ١٧٠٤ قد مثل فى السياسة مبادىء هارتجتون ، وحذا فى الدين حذو شلنجويرت ، فتصدى للدفاع عن التسامح وخاصم فيه أعداءه من لاهوتيي أكسفورد ، وفى مقدمتهم رئيس الشمامسة بروست Proast الذى تولت الجامعة طبع رسائله

اعتنق لوك مبادىء الكنيسة الانجيلية وأبلى فى الدفاع عن العقل بلاء حسنا ، ليقيه طغيان « السلطة » ويبعد عنه سلطان « النقل » وقد وضع فى عام ١٦٩٠ أعظم مؤلفاته الفلسفية « مقال عن العقل البشرى » وفيه دلل على أن التجربة مصدر المعرفة ، وبهذا انتزعها من مجال السلطة وحرر الحقيقة من قيود الدين وأخضع الإيمان لسلطان العقل ، فصرح - مع إيمانه بالوحى المسيحى - بأن الوحى إن بدا على تناقض مع العقل وجب رفضه وعدم الإذعان لأمره . . !

كان توماس هوبز + ١٦٧٩ قد ذهب إلى جمع السلطة التشريعية والتنفيذية والدينية فى يد الحاكم بحجة أن الإنسان يؤثر مصلحته على كل اعتبار ، وقد أساء رجال الدين استغلال السلطان الذى تهيأ لهم ، ولهذا وجب أن يسحب منهم ويركز فى يد الحاكم المستبد ، وباستبداده العادل ترتفع الموضوعات الدينية عما تستهدف له من وجوه الجدل ، وبهذا يكون من حقه هو وحده أن يفرض على رعاياه الدين الذى يراه - وإن كان هوبز قد عدل أخيرا عن هذا الرأى لأن أكثر الإنجليز بروتستانت يحكمهم فى ذلك الوقت كاثوليك - بهذا يكون هوبز قد أقر الاضطهاد الدينى ولكنه نقله من يد الكنيسة إلى يد الحاكم المستبد ، أما « لوك » فقد انطلق - على عكس هوبز - يبشر بالحرية الدينية وينادى بتحرير العقيدة من طغيان الكنيسة والدولة معا ، ويهدم النزعة الاستبدادية ويستبدل بها الحرية والتسامح المحمود ، ويطالب بفصل الكنيسة عن الدولة ليكفل تحقيق هذه الآمال الباسمة .

وقد وضع « لوك » فى عام ١٦٨٩ رسالة عن التسامح الدينى أردفها بثلاث رسائل يتمم فيها البحث فى هذا الموضوع ، أثبت فيها أن مهمة الحكومة تختلف كل الاختلاف عن مهمة الدين ، فالحكومة وظيفتها المحافظة على مصالح رعاياها المدنية والعمل على ترقيتها ، وليس عالم الروح من اختصاصها ، لأن الحاكم لا يملك إلا القوة المادية ولا شأن لمثل هذه القوة بالدين ، إذ أن التدين يقوم على اقتناع العقل اقتناعا باطنيا ، وقد صيغ العقل بحيث إن القوة لا تستطيع قهره وإكراهه على الإيمان ، ومن أجل هذا كان من خطل الرأى أن تعمد الدولة إلى إصدار

قوانين تفرض بها دينا من الأديان ، لأن القوانين لا تستقيم بغير عقوبات تفرض على من يعصى أمرها ، وليس فى وسع العقوبة أن تيسر سبل الإقناع أمام الناس .

طالب « لوك » بتحرير العقيدة من سلطان الدولة وطغيان الكنيسة معا ، لأن الكنيسة فى رأيه ليست إلا « هيئة مختارة حرة » ولو كان من الضرورى أن تفرض المسيحية على من كفر بها عنوة واقتدارا ، لكان من الأيسر على الله أن يهدى هؤلاء الضالين بفيالق من كتائبه فى السماء ، بدلا من أن يحقق هذه الهداية أحد من أتباع الكنيسة . . ! وهذا يذكرنا بقول الامبراطور تباريوس : إذا كان فى المعتقدات الإلهية إساءة إلى الآلهة ، فعلى الآلهة أن تقتص لنفسها . . !

على أن «لوك» - مع هذا كله لم - يتخلص من أوهام عصره وأحكامه المبتسرة فقد ناقض مبدأه فى حرية الاعتقاد واستثنى من مبدأ التسامح الكاثوليك والهراطقه ، لأن هؤلاء الذين لا يؤمنون بوجود الله ، لا يقيمون وزنا لعهد ولا قسم ولا ميثاق ، وبغيرها لا يستقيم المجتمع الإنسانى ، ثم إنهم بتقويضهم الأديان كلها لا يملكون الادعاء بأن لهم دينا يعطيهم الحق فى طلب التسامح . !

التسامح فى انجلترا بعد القرن السابع عشر

وفى عام ١٦٨٩ - قبل ممات لوك - صدر فى انجلترا مرسوم بالتسامح ، ولكنه كان تسامحا أبتر ناقصا ، إذ حرم فيه من التسامح الكاثوليك والموحدين ،

ولكنه مهد لشيوع التسامح الصحيح بعد ذلك ، فاستقر فى انجلترا أمر التسامح النسبى إبان القرن الثامن عشر ، وخفت حدة التعصب وتسللت النزعة العقلية إلى الأحبار البارزين ، وسرعان ما بسط التسامح جناحه على الكاثوليك والموحدين ، فصدر فى مطلع القرن الغابر (فى عام ١٨١٣) قانون بحرية العبادة للموحدين ، وإن كانوا لم يزاولوها إلا فى عام ١٨٤٠ . ثم صدر فى عام ١٨١٩ قانون آخر يقضى بتخفيف القيود المفروضة على الكاثوليك . واستمتع اليهود بحقوقهم المدنية كاملة عام ١٨٥٨ ، وهكذا مضى أحرار الفكر بانجلترا البروتستانتية فى طريق التسامح الدينى قدما ، منذ القرن السابع عشر حتى القرن الغابر .

ونلاحظ مما أسلفنا ، أن أول خطوة نحو التسامح فى انجلترا ، مرجع الفضل فيها إلى روح الشك الذى حطم الأسس التى قام عليها مبدأ الاضطهاد ، وأن أعظم المحامين دفاعا عن التسامح كان ممن تربطهم بالدين أوثق الصلات !

هذا عن قصة التسامح فى انجلترا ، فلنعرض فى إيجاز إلى قصته فى فرنسا :

مراعى الاضطهاد فى فرنسا بظهور الشك

قلنا إن الاضطهاد لا يستقيم بغير سلطة تمكن أصحابه من جندلة خصومهم وتقويض هذه السلطة لا يخمد نار الحقد ولا يقضى على الضغينة التى تحك فى الصدور ، وإنما يتلاشى هذا كله يوم يستنير المتعصبون ويلجأون إلى منطق العقل ووحى العدالة ، يلتمسون فى رحابه الصفاء والوئام .

وتاريخ التسامح الدينى يقول إن انتصار الحرية الدينية قد تم على يد العقليين، يوم بدأوا بالشك فى الأسس التى قام عليها الاضطهاد، فلما تداعت هذه الأسس انهار الاضطهاد بتداعيها، وكان هذا أوضح ما يكون فى فرنسا التى اضطرمت بالشك الهدام فى أواخر القرن السادس عشر على يد مونتانى Montaigne وسانشيه Sunchez، ثم خمدت جذوته فى عباب الدعوة إلى العقل فى القرن الذى تلاه، فهادنت الفلسفة الدين على يد ديكارت ومدرسته. (١)

ثم اتقدت النزعة العقلية فى القرن الثامن عشر، وبدت فى حملة فولتير وأقرانه على التعصب والاضطهاد، وكتب لأحرار الفكر أن يمهدوا الطريق لقيام الثورة الفرنسية، فلنقف لتفسير هذا قليلا:

رواد التسامح فى فرنسا

فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الذى تلاه، أثار الشك فى نفوس الناس مونتانى وديكات وبايل Bayle وإن كان شك كل منهم يخالف شك صاحبه خلافا ملحوظا.

فأما مونتانى فلم يجد مبررا للثقة فى أدوات المعرفة البشرية من عقل وحواس، وارتاب فى قدرتها على التوصل إلى الحقيقة فانتهى بهذا إلى الشك الهدام؛ ولكنه كان مع هذا الشك كاثوليكيا وفيا لدينه القديم، ومقالاته تبشر بالمذهب العقلى وتجهر فى نفس الوقت بالكاثوليكية الصحيحة. وقد لزم الموقف الشكى

(١) انظر كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة ص ١٦٧ وما بعدها

الذى لا يرى إمكان التوفيق بين العقل والدين لأن العقل قاصر فى ميدان اللاهوت ومن أجل هذا وجب إبعاد الدين عن تدخل العقل لكى يقبل الناس على اعتناقه من غير جدل .

اقتصر شك مونتانى وغيره من أعلام مدرسته على العلم والفلسفة لم يتجاوزهما إلى مجال الدين ؛ ولكن شكهم كان هداما ، ومن هنا كان تأثيره فى زعزعة الأسس التى استند إليها التعصب والاضطهاد .

وأما ديكارت + ١٦٥٠ فقد اتخذ الشك منهجا يزاوله بإرادته ومن ثم استطاع أن يتحرر منه ، لم يقصد بشكه إلى الهدم والتقويض ، بل أراد أن يحارب به شك مونتانى وغيره ، خاض ديكارت غمار الشك بإرادته فانتهى منه إلى اليقين ، فرد به سلطان العقل بضمان الله الذى وضعه فى نفوس البشر ، ومن هنا كان الشك بدء كل حكمة ، وإذا فليس الشك جريمة تستحق العقاب .

وقد كان « بايل » ناقدا ممتازا يضطرم حماسة لنصرة التسامح ، وقد تصدى لمقاومة رجال اللاهوت الذين نزعوا إلى اضطهاد الأحرار استنادا الى الآية الإنجيليه : أجبروهم على اعتناق دينكم ، واعتمادا على أقوال القديس أوغسطين ، فعرض بايل لمناقشة مزاعمهم وكتب « تعليقات فلسفية على آية أجبروهم ... الخ » ونشر الكتاب فى نفس العام الذى صدر فيه كتاب لوك (١٦٨٦) .

وقد أكد بايل الشك فى قيمة القوة أداة لإقرار الحق ، إذ لو كان استخدام القوة

فى قمع الخطأ مبدأ صحيحا ، لما كان هناك حق بلغ من اليقين ما يبرر تطبيق هذا المبدأ (١) .

وقد كتب بايل قاموسه الفلسفى بأسلوب لاذع مر ، وفيه بدا من أعظم رواد الدعوة إلى الحرية الدينية .

على أن « بايل » لم يؤت من الشجاعة الأدبية ما يمكنه من مجابهة خصومه ، فكان يكتب متخفيا معتصما بالتقية ؛ وقد نشر كتابه السالف فى تعليقاته على الآية الإنجيلية تحت عنوان : Contrains - les d'entrer, trad ed l'anglais du Sieur Jean Fox de Bruggs Par M, J. F. : à Contorberry, chez Th. litwell "

على أن الظاهرة المشتركة بينه وبين مونتانى وديكارت ، أنهم قاوموا التعصب وحاربوا الاضطهاد وانتصروا للتسامح ، كانوا عقليين لأنهم كانوا شكاكا - على ما بين شك كل منهم وشك الأخر من فروق

والحركة العقلية التى مثلها هؤلاء الثلاثة - وكانوا مصدرها إلى حد كبير - تجلت فى سياسة هنرى الرابع الذى أقر التسامح بمرسوم نانت الذى أشرنا من قبل إلى أنه أصدره عام ١٦٨٧ ورفع به عن الهوجونوت قيود الاضطهاد ، وإن كان قد حرمهم من مزاولة بعض المهن ؛

ومرجع الفضل فى هذا القانون إلى حركة عقلية نهض بها بعض أحرار

---

(١) انظر تفصيل هذا فى كتابنا : السالف الذكر ص ١٧٨ - ١٨٠

الفكر ممن ضاقوا بالتعصب ونزعوا إلى إقرار الحرية الدينية، وقد تزعم هذه الحركة فولتير.

حملة فولتير على التعصب الديني:

كان فولتير 1778 + Voltaire طبيعيا مؤلها Deist، آمن بوجود إله هدت إليه طبيعة البشر، ورأى أن هذا الاعتقاد ضروري لصيانة كيان المجتمع « فاذا لم يكن الله موجودا لوجب اختراعه، فيجب أن يؤمن الناس بالله حتى تكون زوجتي أكثر وفاء لي، وخادمي أقل نزوعا للاختلاس » وبهذا الإله الذي هداه إليه عقله استغنى عن الوحي والكتب المقدسة وأطلق على المسيحية اسم الكائن الوضيع..! وحارب الكنيسة ورجالها وناهض التعصب والخرافات وجاهد لاستئصالها جهاد الأبطال، وقاوم الاضطهاد ومزق جلود أهله، واحتلت مواقفه في الدفاع عن التسامح الديني أبرز مكان في تاريخ الدفاع عن حرية الاعتقاد، وكانت أولى حملاته كتيبا أسماه « مقبرة التعصب الديني »

تشبيه جميل قال في مطالعه: إن من يعتنق دينه من غير تفكير - شأن السواد الأعظم من الناس - كالثور الذي يستسلم للنير ويحمله راضيا..!

ومن آثار فولتير القيمة التي خلفها لنا في مهاجمة التعصب رسالته في التسامح بمناسبة مصرع جان كالا Traité Sur la Tolerance وغيرها من رسائل أرسلها شواظا من نار إلى المتزمتين الذين تحولوا تحت تأثير التعصب البغيض وحوشا

آدمية مفترسة ، لاتردها عن ارتكاب الجريمة رحمة ولاتردعها عدالة

ولم يكن مبدأ الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية معروفا فى عصره وكانت الرقابة مفروضة على المطبوعات ، وعقوبة الإعدام مسلطة على من يعرض لنقد الدين ، ولكن كتاباته قد استبدت بهوى عصره ، إذ كان فولتير ترجمانه الصادق الذى عبر عن آلامه وآماله أحسن تعبير وأقواه ، وكان يقول : إن من يقول لك اعتقد بما أومن به وإلا نزلت بك لعنة الله، لايلبث أن يقول لك : اعتقد بما أومن به وإلا قتلتك ! ولايمكن أن يسود على الأرض سلام قبل أن يعرف الناس كيف يتسامح بعضهم مع بعض فى مجال الفلسفة والسياسة والدين، وبمثل هذه الروح كان يكتب فولتير . فلنعرض نموذجا لمواقفه الرائعة التى انتصر فيها للدفاع عن ضحايا التعصب الدينى فى فرنسا إبان القرن الثامن عشر ، ومبلغ النزوع إلى التسامح عند مفكرى هذا القرن !

دفاع فولتير فى قضايا التعصب - مأساة كالا :

هذه قصة أسرة بروتستانتية عسف بها جور الكثلكة فى تولوز ، هى أسرة جان كالا Jean Calas - وهو تاجر أقمشة من الهوجونوت - وكان القانون يقضى بأن يكون خدم الهوجونوت من الكاثوليك رغبة فى التجسس عليهم، فكانت خادم الأسرة العجوز كاثوليكية ، وكان أحد أبناء « كالا » يعتنق الكثلكة دينا ويعيش بمعزل عن أسرته ، ولكن أباه يقوم بالإنفاق عليه راغما ، كما كان يقضى القانون فى ذلك العصر ! وكان ثانى الأبناء - أنطوان - مغيظا

محنقا ، لأنه أراد احتراف المحاماه فحرمه القانون ذلك ، لأن المحاماه كانت من المهن المحظور على الهوجوت مزاولتها ! ففكر فى الارتداد عن مذهبه البروتستانتى إلى الكثلكة ، وكان مثل هذا الارتداد يؤذى كرامة الأسرة ويشوه سمعتها .

وفى ذات ليلة كان فى زيارة الأسرة صديق لها ، كشف عند الانصراف أن أنطوان الذى انسحب بعد العشاء ، ملقى فى الطابق السفلى من الدار قتيلا . . ! وكان لا يزال عالقا بعنقه رباط أسود ، وخفت الأسرة لمرآه وأيقنت أنه استوفى أنفاسه ، انطلقت تصيح وتبكى مصير هذا المسكين ، وبادر الجيران إلى الدار يستفسرون عن حقيقة النبأ فأبلغهم الأب أن ابنه قد اغتاله بعض الأشقياء .

ولكن الشبهات والريب قد ساورت الناس بصدد هذه الجريمة ، وامتدت الظنون إلى الأسرة أبا وأما وأخا وتجاوزتهم إلى الصديق الذى كان فى ضيافتهم ! وتأيد هذا الظن حين ثبتت رغبة القتيل فى احتراف المحاماة على غير جدوى ، وحين تأكد ميله إلى الارتداد عن مذهب أسرته واعتناق الكثلكة دينا ، وساعد على هذه الريب اشتعال التعصب الدينى فى نفوس الناس إبان هذا العهد ، واضطرار الأب إلى أن يتكفل بنفقة المرتدين عن دينه من أفراد أسرته ، مع أنهم يعيشون بعيدين عنه !

فاعتقل الذين حامت حولهم الشبهات ، وكبلوا بالحديد وقدموا إلى

المحاكمة ، وكان قد جاء فى التقرير الطبي عن هـذا القتيل ، إن احـتمال انتحاره كاحتمال شنقه على يد آخرين ، كلاهما ممكن ! واستطال الجدل فى غمـار التحقيق الذى جرى بصدد ذلك ، واستغل الكاثوليك الحادثة أسوأ استغلال ، ونجحوا فى إثارة الشعور الدينى المتزمت من أجل هذا الشهيد الذى راح ضحية التعصب ضد الكثلكة ..!

وتقررت إدانة المتهمين من غير دليل قاطع يثبت إدانتهم ، إلا مجرد الظن تحوم حولهم ، وكانت الإدانة بعد خلاف شديد بين القضاة الذين بلغ عديدهم ثلاثة عشر قاضيا ، وصدر حكم الإدانة بأغلبية صوت واحد ! وأعدم « كالا » وقد نيف على الستين من عمره على آلة التعذيب ، وقبل إعدامه سيم مر العذاب فاحتمله صابرا ، ثم توسل إلى الله عند الممات أن يغفر لقضاته ! وبرأ برلمان تولوز سائر المتهمين وقضى بنفى أبناء كالا ، وألقى ابن وابنة له فى الدير وتركت الزوجة لتموت جوعا . . !

دفاع فولتير فى هذه المأساة :

وكان فولتير أثناء ذلك قد نيف على الستين ولكنه كان فتى القلب وثاب الشعور ، يتدفق بيانه طلقا لا يقف ولا يتردد ، وتندلع من قلمه نيران تكوى ولا ترحم ، وكان يعلم أن السلطات الكاثوليكية تسوم الهوجونوت فى جنوبى فرنسا سوء العذاب منذ أن ألغى مرسوم نانت وأطلقت يدها بالانتقام ، ويعرف أن القانون يقى جورهم ويحمى عسفهم بخصومهم ، لأنه يحرم العبادة

على غير الشعائر الكاثوليكية ، ويهدد بالإعدام عقابا لمن ركب رأسه وعصى أمر القانون ، وكان الرأى العام الكاثوليكى من ناحية أخرى يرتاح للانتقام من الهوجونوت ، ولكن أنباء الجريمة قد تطايرت حتى اتصلت بسمع فولتير ، واقتنع ببراءة كالا وأسرته من دم القتيل ، فوطن العزم على أن يرد هذا الظلم ويمزق جلود المتعصبين وينتصر لسياسة التسامح - حبا فى مبدأ التسامح لا رغبة منه فى نصرة طائفة على أخرى .

بدأ فولتير بالاستعانة بأصدقائه الذين كانوا على رأيه فى جمع الأدلة التى تعين على إعادة النظر فى القضية من جديد ! ونهض هؤلاء الأصدقاء بمهمتهم على خير وجه ، ثم حاول فولتير بعد هذا أن يغير اتجاه الرأى العام برسائل نارية وجهها إلى أصحاب النفوذ من أصدقائه ، ومنهم رئيس الوزراء فى ذلك العهد . ثم اتهم بعض القضاة بأنهم أعضاء فى جمعية كاثوليكية فى تولوز ، ورأى أن الأب الذى نيف على الستين لا يقوى على قتل شاب فى مقتبل العمر دون الاستعانة بغيره ، والقضاء يقول إن الذى أعانه زوجه وأحد أبنائه والخادم العجوز ، فكيف تقدم العجوز الكاثوليكية على قتل ابن تولت تربيته وعرفت ميله إلى دينها . . ؟ وكيف يقدم أب وأم على قتل ابنهما ؟ وكيف تتم جريمة القتل من غير معركة تترك خدوشا أو جروحا . . ؟ ثم كيف يشنق الأب ابنه ويعود فيرفع عنه الحبل وينادى مع بقية المتهمين ليصل النبأ إلى الجيران ؟ ويمضى فولتير فى التدليل على بطلان الإدانة مستعينا بأسلوبه المثير وقوته الغلابة على إيقاظ المشاعر وتحويل العواطف إلى حيث يريد . وكان فولتير قد

سعى إلى الأرملة التعيسة وأقنعها بالسفر إلى باريس ، حيث خف لنصرتها كبار المحامين وأحسن الجمهور استقبالها .

وسرعان ما آتت دعوته أكلها واتصل به فردريك الأكبر ملك بروسيا ، وكاترين قيصرة روسيا ، وغيرهما ممن انتصروا لدعوته وشدوا بالمال أزره ، حتى تقرر أن يعاد النظر فى القضية بعد عام من صدور الحكم فيها ؛ ثم قرر برلمان باريس بإجماع الآراء براءة الأب كالا وأسرته بعد ثلاثة أعوام من إعدام هذا المسكين ..! ومنح الملك معاشا لهذه الأسرة التعيسة يقدر بثلاثين ألف فرنك ، ولخادمها العجوز ثلاثة آلاف فرنك ! وكان كل هذا على كره من برلمان تولوز الذى قرر الإدانة من قبل ورفض الاعتراف بالبراءة بعد ..!

دفاع فولتير فى مأساة سيرفين

كان مثل هذا الجور الظلوم فى ذلك العصر كثيرا ، فلم يكن غريبا أن تتكرر المأساة فى نفس العام ، وأن تسير إجراءات الإدانة على النحو الذى سارت فيه الإجراءات فى قضية كالا . ذلك أن كاثوليكية كانت تخدم عند أسرة سرفين Sirven التى كانت تدين بمذهب الهوجونوت ، فهدت هذه الخادم لابنة سيرفين أن تفر إلى دير عذبت فيه عذابا أليما لتتخلى عن مذهبها البروتستانتى وتعتنق الكثلكة دينا ، فلاذت الفتاة فرارا وانتحرت غرقا فى بئر ! فاتهم أبوها بإغراقها ليحول دون ارتدادها عن دينها ..! وصدر حكم بإعدامه مع

زوجته ونفى ابنتيه الأخريين ومصادرة أملاك الأسرة ..! فانطلقت الأسرة فارة من وجه القضاء وولت وجهها شطر سويسره ، حيث أقنعت فولتير ببراءتها .

ولبث فولتير تسع سنوات يناضل لإعادة التحقيق فى هذه القضية حتى كلل مسعاه بالنجاح ، وكان دفاعه فى هاتين القضيتين وفى غيرهما مثار الإعجاب والتقدير .

حقيقة التسامح عند فولتير

اضطرم القرن الثامن عشر بروح النقد الهدام الذى أتى على سوءات المجتمع ومساوىء الكنيسة ، وكان طبيعيا لرجل عصبى المزاج حاد الطبع - كفولتير - أن يتزعم حركة هذا النقد الهدام ، ووقف الكثير من جهوده على مهاجمة التعصب ونصرة التسامح ، فلم يكتب رساله أو مسرحية أو قصة أو قصيدة أو مؤلفا فى التاريخ ، إلا شاد فيه بالتسامح ونددد بالتعصب البغيض .

وقد رد فولتير جريمة التعصب إلى إيمان الناس بوجود دين منزل . . !! ورأى أن هذا الدين قد صدرت عنه تقاليد وعقائد آمن الناس بها وهى لا تتصل بالفضيلة ولا تمت للعلاقة القائمة بين الناس بسبب من الأسباب ! ومن هنا كانت حملاته على الدين الذى نزل به الوحى وتبشيره بالدين الطبيعى، دين العقل الذى يدفع الضمير إلى الشعور بوجود كائن أعلى يحثنا على مزاولة الفضيلة دواما .

كان طبيعيا بعد هذا أن يهاجم فى كل كتاباته رجال الدين فى غير رفق ولا رحمة ، وتمشيا مع مذهبه هاجم الإسلام فى مسرحيته عن «النبي محمد أو التعصب» ١٧٤٢م واتهم النبي عليه الصلاة والسلام بالتعصب لأنه عزا دينه الى الوحي الإلهي !.

ولعل هذا يفسر لنا السر فى إعجاب فولتير بحكيم الصين « كونفشيوس » الذى قنع بالتبشير بوجود كائن أعلى ، ونادى بالعمل بما تمليه الفضيلة وتوحى به الأخلاق ، دون أن يتجاوز هذا الى الادعاء بأنه رسول يحمل رسالة إلهية عليه أن يبلغها إلى الناس ! وقد عرفت هاتان العقيدتان - الكائن أعلى والأخلاق الفاضلة - منذ عشرات القرون قبل ميلاد المسيح - عند الشعوب العريقة فى القدم ، وليس كل دين إلا مرحلة فى تاريخ الأديان ، إنه يمثل حلقة فى سلسلة تطورها ، والعالم أسرة واحدة يمكن أن تحيا فى جو من التسامح والوئام ، متى قنعت بالاعتقاد بوجود كائن علوى ، وزاولت الفضيلة واعتنقتها مبدأ فى كل ما تباشر من أعمال

فى الحق إن تعصب فولتير لأفكاره وحملاته اللاذعة الساخرة على من خالفوه رأيه ، لتشاهد عدل على تعصبه وحاجته الى التسامح ..! (١)

موقف روسو من الاضطهاد

وقد كان جان جاك روسو يحس بشرور الاضطهاد الدينى كما يحس بها

---

(١) Lotfy Fam, Etude et traduction de "Candide" de Voltaire 1938
وقد نشرت الترجمة وحدها

فولتير ، ولكنه نشأ فى جنيف وتشبع فيها بتقاليد كلفن ، وبدا أثر هذا فى الحكومة المثالية التى تصورها ، اذ أنها لا تمتاز على أية حكومة تيوقراطية دينية ، والدين المدنى الذى اقترح فرضه على الناس ليس أكثر من مسيحية غير متعسفة ، وقد آثر الإبقاء على بعض المبادىء الجوهرية فى الدين المسيحى - كالإيمان بالله واليوم الآخر - وفرضه على الناس عنوة واقتدارا ، ومن أبى الإذعان لها كان مصيره النفى ! وكان هذا فى وقت لم تزاول فيه تجربة التسامح المطلق .

وقد كان روسو طبيعيا مؤلها ، ومن هنا كان إيمانه بالله ، وإنكاره اللاهوت والوحى المنزل ، فأحرق كتابه فى باريس وصدر أمر باعتقاله ، فلاذ فرارا ولبث شريدا طريدا حتى حط رحاله فى إمارة « نيف شاتل » حيث وقاه شر المتعصبين فردريك الأكبر ، الحاكم المتسامح الوحيد فى ذلك العصر ، ولكن روسو اتهم بالهرطقة فولى وجهه شطر انجلترا عام ١٧٦٦ ثم غادرها الى فرنسا وأقام بها حتى قضى نحبه . .

ومن هذا نرى أن الرغبة فى الاضطهاد لم تكن مقصورة على الجماهير وحدهم ، بل امتدت إلى كبار المفكرين وكان لها أثرها فى كتاباتهم . . !

التسامح المطلق فى الثورة الفرنسية :

وقد أقبلت الثورة الفرنسية تحمل النبشير بالتسامح ، فجاء فى إعلان حقوق الإنسان فى عام ١٧٨٩ Declaration of Rights ألا يضار امرؤ

بسبب آرائه الدينية ما لم يترتب عليهـا إضرار بالنظام العـام ، وبقيت الكاثوليكيـة الدين السائد فى الدولة ، وسمح للبروتستانت دون اليهـود أن يشغلوا الوظائف العامة . فكانت هذه خطوة نحو التسامح بمعناه الصحيح .

بل غلا أحرار الفكر فى دعوتهم فاحتج ميرابو - أعظم سياسى فرنسى فى عصره - احتجاجا صارخا على استخدام كلمة «التسامح» والدين «السائد» ، فى مجال التعبير عن حقوق الإنسان، لأن لفظ التسامح يوحى بنوع من الاستبداد! إذ أن السلطة التى تملك التسامح تملك حرمان الناس منه !

وتردد هذا الاحتجاج فى كتاب توماس بين Thomas Paine الذى صدر بعد ذلك بعامين ، إذ يقول إن لفظ التسامح لايضاد التعصب ولكنه لفظ مقلد مزور له ، كلاهما تعسف واستبداد ، لأن احدهما يدعى لنفسه الحق فى حبس حرية الضمير ، والثانى يدعى لنفسه الحق فى منحها للناس . . !

وإذا كانت الثورة الفرنسية قد بدأت مبشرة بالحـرية الدينيـة ، فسرعان ما سقطت هذه الحرية فى عباب التمرد على الحكومة ، ومضى الناس بعد الملكية التى تداعت أركانها (١٧٩٢ - ١٧٩٥) يدعون إلى نبذ المسيحيـة ويبشرون بعبادة العقل . . !

وفى دستور عام ١٧٩٥ انفصلت الكنيسة عن الدولة فكفل هذا حرية العبادات لجميع العقائد واستخف الناس بالكاثوليكية ورجالها .

ولكن نابليون قد أقر للكاثوليكية نفوذها مع بقاء التسامح مع غيرها

من المذاهب .

وصفوة القول فى هذا النزاع الذى ثار فى فرنسا بين معسكر الرجعيين ومعسكر الأحرار ، أن نمو الحرية الدينية كان يتعارض مع الكنيسة ويتنافى مع روحها وأن انتصاره كان الشاهد العدل على اضمحلال نفوذها .

وقد حاول البعض تحت قيادة لامنيه Lamennais أن يربطوا فى القرن الغابر بين المذهب الكاثوليكى والمدنية الحديثة ، فضاق بحركتهم البابا جريجورى السادس عشر وأصدر فى عام ١٨٣٢ منشوره الذى حمل فيه على الدعوة لحرية الضمير وحرية النشر ونحوها ، وهاجم أتباعها فى غير رفق ولا هوادة

مغزى تاريخ التسامح فى انجلترا وفرنسا .

ومن كل ماأسلفناه نلاحظ أن روح التعصب قد بلغت أشدها فى كنيسة روما وغيرها من كنائس المصلحين من البروتستانت وأن مرجع الفضل فى اضمحلال هذه الروح عند الكاثوليك والبرتستانت على السواء ، إلى قيام المذهب العقلى وشيوع القول بكفاية العقل وقدرته على الفهم والتعليل ، وأن المتزمتين من رجال الدين - فى الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء - هم الذين تصدوا لمقاومة المدنية ومناهضة تعاليمها ومبادئها ، وقد صمدوا لأداء هذه المهمة ولم يتخلوا عن سلاحهم فى الميدان إلا بعد سلسلة من الفتن والثورات شنها خصومهم وأتوا فيها على نفوذهم ، بل بعد أن بدد نور العلم ظلام الجهل والحقد والتعصب .

انتصار التسامح الدينى فى بروسيا فى القرن الثامن عشر

فإذا انتقلنا إلى ألمانيا فى ذلك القرن - الثامن عشر - طالعتنا الحرية الدينية وقد انتصرت على يد حاكمها الحر فردريك الأكبر ؛ ذلك أن حرب الثلاثين فى القرن السالف - السابع عشر - قد انتهت - على ماعرفنا - بنوع من التسامح الضيق تم فيه الاعتراف بالكاثوليكية والبروتستانتية - من لوثرية وكلفنية وزونجلية - واستبعد ما عداها من مذاهب ، وأتيح للأمراء - على ماجرى عليه العرف فى ذلك العصر - اختيار مايروقهم من العقائد وفرضه فى إماراتهم مع التسامح بقيام غيره إلى جانبه أو عدم التسامح فى ذلك - حسب مشيئة الأمير ؛ ولكن رجال القانون والآداب وغيرهم من المفكرين قد انتصروا لمبدأ التسامح، ومهدوا الطريق الذى يسلم إلى اعتناقه ، فلما ولى فردريك الأكبر عرش بروسيا ، تلقى بعد بضعة أشهر من حكمة (١٧٤٠ م) بيانا رسميا بصدد قضية دينية فكتب على هامشه يقول: إن من حق كل امرىء أن يصل إلى الجنة بالطريقة التى تروقه ..! وأن فى وسع الإنسان أن يكون مواطنا صالحا ، أيا كانت العقيدة التى يدين بها ..! وليس للدولة عنده أكثر من ذلك ؛ فكانت هذه وثبة فى مجال التسامح لاتصدر إلا عن رجل واسع الصدر متزن العقل . وبهذا استقرت الحرية الدينية المطلقة على يد هذا الحاكم الحر الذى اتصلت بينه وبين فولتير روابط الصداقة ، وشمل التسامح المذاهب الميسيحية كلها . بل وخطر لهذا الحاكم الحر أن يأذن للمسلمين بالهجرة الى مملكته ! وتأيدت هذه المبادىء فى دستور بروسيا عام ١٧٩٤، وفيه تحققت حرية الضمير المطلقة فى المذاهب الرئيسية فى

المسيحية ، وهى المذهب اللوثرى والإصلاحى والكاثوليكى - وتساوت كلها فى الحقوق والامتيازات .

أثر ألمانيا فى غير ها من الدول :

وقد حذت الدويلات الألمانية حذو بروسيا بقرار صدر فى عام ١٨٠٣ م وسرعان مابسطت الحرية الدينية جناحها على ربوع ألمانيا كلها ، قبل أن تنشأ الامبراطورية الألمانية الجديدة (فى عام ١٨٧٠ م)

وشاع هذا الروح الطيب فى النمسا فى عهد الامبراطور يوسف الثانى - وإن كان التسامح الذى أقره فى أواخر القرن الثامن عشر منقوصا غير كامل ولكن أثره كان محمودا فى الولايات النمساوية فى إيطاليا ، لأنه مهد لقبول فكرة التسامح عند أهلها بعد ، وكان طريفا أن ينهض بالدفاع عن قضية التسامح فيها إبان القرن الثامن عشر أحد رجال الكهنوت من الكاثوليك ، وهو تامبورينى Tampurine وقد أذاع تحت اسم مستعار كتابا فصل فيه بين الكنيسة والدولة وناهض الاضطهاد ونددبمحاكم التفتيش ، وجهر بمنافاة سياسة القمع لمبادىء العقيدة المسيحية ... وإن كان على اتفاق مع جون لوك فى أن الإلحاد اثم يستحق القصاص .

وأخذت الحرية الدينية تتسل إلى الإمارات الإيطالية الناشئة شيئا فشيئا حتى ضاقت الكنيسة بهذا الروح الجديد ، ونهض البابا جريجورى السادس عشر فى عام ١٨٣٢ بمقاومة الروح الجديد بمنشور عام على ما أشرنا منذ حين ، ثم عقب البابا بيوس التاسع بمنشور أصدره فى عام ١٨٦٤ وجرى

فيه على النهج الذي رسمه سلفه . . ! وفاجأ مجلس الفاتيكان العالم بقرار أعلن فيه عام ١٨٧٠ أن البابا معصوم من الخطأ ..!! (١)

قيام الحرية الدينية في أوروبا في القرن الغابر :

وفى القرن الغابر ، استقرت الحرية الدينية فى أوروبا ، وشمل التسامح أبناء الأمة الواحدة وبرئت حياة الناس مما كان يؤدى إليه تعصب المتزمتين من وجوه الاضطهاد والتعذيب ، وأتيحت وظائف الحكومة ويسرت أسباب التعليم فى المدارس ، وطرحت نيابة المجالس لأبناء الأمة الواحدة وقد كانت إلى الأمس القريب وقفا على أتباع الحكومة ، وذاعت الحرية الدينية وسلب الحكام حقهم فى أن يفرضوا على رعاياهم اعتناق الدين الذى يدينون به .

ولكن اليهود ظلوا موضع اضطهاد فى أكثر بقاع العالم المسيحى ، بيد أن اضطهادهم فى القرن الغابر كان مرده إلى أسباب سياسيةواجتماعية وليست دينية، وقد خضع اليهود للاضطهاد والعسف فى وسط أوروبا وشرقيها ، وكانوا مثار الكراهية والحقد فى ألمانيا فى القرن الحاضر بوجه خاص.

تطورت أسباب اضطهاد اليهود فى القرن الحاضر فأضحت اجتماعية أكثر منها سياسية أو دينية ، فلنقف لبيان هذا الاضهاد وقفة قصيرة :

فى القرن الغابر صرح رينان Renan وغيره بالتفرقة بين الساميين والآريين

(١) انظر الفصل الاخير من كتابنا « قصة النزاع بين الدين والفلسفة »

واكتملت نظرية الخصـــومة السامية Anti Semitism التى كانت ترمى إلى اضطهاد اليهود وسلبهم الكثير من حقوقهم السياسية والاجتماعية ، جزاء وفاقا على ما اتصفوا به من نقصان العاطفة الوطنية والجشع والتعصب الجنسى والشغف بالمال ونحوه ، فنسبوا إليهم تدبير الكوارث المالية والأزمات التى تصيب الشعوب ومن هنا كان اضطهادهم فى وسط أوروبا وشرقيها .

وقد نهضت حركه العداوة فى فرنسا لنفس الأسباب التى أدت إليها فى غيرها من الدول ، وقواها إفلاس شركه بناما التى أنشأها دلسبس ، ثم اتهام الضابط اليهودى ألفرد دريفوس A. Dreyfus بإذاعة أسرار الوطن الحربية الى ألمانيا ؛ واستمرت هذه القضية اثنى عشر عاما أشعلت فيها نار العداوة وزادت الخصومة وقدة واشتعالا ، ونشط اليهود من ناحية أخرى لمقاومة هذا التيار الجارف فى عداوته لهم ، فنهض بعضهم بالحركه الصهيونية التى تهدف إلى إقامة وطن قومى لليهود .. فى فلسطين .. وزاد اليهود تضامنا واتحادا (١) .

وهكذا كانت أسباب اضطهاد اليهود أخيرا ، أثارت مطامعهم غضب الشعوب واستفز تعصبهم الجنسى الحنق ، وأيقظت سيطرتهم على المال وهيمنتهم عـــلى الحكومات الحقد فى الصدور وأصبحت الصهيونية مثار القلق فى العالم العربى كله ، وأحالت بقية عطفه على بنى إسرائيل سخطا يجتاح النفوس .

---

(١) كان فيلون الفيلسوف الاسكندري + ٥٠م أكبر مفكرى اليهود في عصره يستبعد من اليهودية كل طموح سياسي ، لأن اليهودية في عرفه دين وليست جنسا ، وحسب اليهودي ان يكون مواطنا في البلد الذي يقيم فيه .

تعقيب

على النحو الذى أسلفناه نشأ التسامح عن حركة الإصلاح الدينى مع تعصب أهلها ونزوعهم للاضطهاد ، وابتدع الحرية الدينية الصوصنية ومن اليهم ممن كانوا موضع سخط من الكنيسة وخصومها من المصلحين على السواء، وكان للشك عند أصحاب المذهب العقلى أثره الفعال فى زعزعة الأسس التى قام عليها الاضطهاد ، وتمهيد الطريق لقبول الناس لفكرة التسامح .

وكان من الظواهر الملحوظة ، أن تسبق انجلترا البروتستانتية فى مضمار التسامح فرنسا الكاثوليكية، وأن يظل كابوس التعصب البغيض جاثما على صدرها حتى تندلع ثورتها الكبرى ، وتحطم القيم المعروفة فى رءوس الفرنسيين . وبفضل حاكم كبير القلب واسع العقل تحققت الحرية الدينية فى أكمل صورها فى بروسيا قبل غيرها من دول العالم

بل إذا كان القرن الغابر قد أقر الحرية الدينية من الناحية الشكلية فإن التعصب لم يتخل عن نفوذه فى نفوس الساسة والزعماء والناس إلى وقتنا الحاضر وسنرى فى الفصل التالى كيف نص الوفد المصرى فى هيئة الأمم المتحدة فى أخريات عامنا المنصرم (نوفمبر ١٩٤٦) على مقاومة هذا التعصب البغيض فى أوروبا الوسطى بوجه خاص . ومن أجل هذا آثرنا أن يكون عنوان فصلنا هذا «فجر التسامح الدينى» . . لأن التسامح المطلق الكامل لم يشرق بعد ، وإن كان من المحقق أنه آت لاريب فيه .

الإسلام والاضطهاد

الاضطهاد فى الإسلام

بواعث الاضطهاد فى الاسلام — معنى الزندقه في الاسلام — فشو الزندقة فى العصر العباسي — اضطهاد المهدى والهادى للزنادقه — اضطهاد الزنادقه بعد الهادى — استئصال القرامطه — مذبحة الشيعة — من آثار الجمود فى العصر الحديث — نماذج من شكوى الامام — الجمود في وقتنا الحاضر — اتهام الفاروق باضطهاد الذميين — الاستشهاد فى القرآن الكريم — الاستشهاد عند رسول الله — حب المؤمنين للاستشهاد في سبيل الله — القتال المباح فى الاسلام — الجهاد في الاسلام — الحرية في الاسلام — موقف الاسلام من الذميين — سماحة الفاروق مع المسيحيين — أسباب ما أسلفناه من وجوه الاضطهاد — تعقيب .

بواعث الاضطهاد فى الاسلام:

عرف الإسلام — كما عرف غيره من الأديان — غلاة المتزمتين من المؤمنين ، ولكن التعصب — فيما أشرنا من قبل — لايفضى إلى الاضطهاد الدامى إلا متى أيدته سلطة دنيوية تمكن أهل التزمت من إيذاء خصومهم . والإسلام لايقر لأحد رجاله بسلطة يبسطها على غيره من أتباعه ، ولايخص أحداً — بالغا مابلغت مكانته — بتأويل نصوصه أو بالقدرة على غفران ذنت ارتكب ، إذ ليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى ، وقد خطب أبو بكر يوم بويع بالخلافة فقال : أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت الله فلاطاعة لى عليكم ! بل ليس رسول الله إلا مذكرا ومبلغا ، لامسيطرا ومهيمنا ، « فذكر إنما أنت

مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ، وقد فصل أئمة الدين فى بيان ذلك . (١)

هذا من الناحية الشكلية ، أما الذى حدث بالفعل فهو أن بعض رجال السلطة الزمنية فى الاسلام قد استجابوا فى بعض مراحل تاريخه لتزمت المتعصبين من أهله ، أو انقادوا لتعصبهم الذميم أو لحرصهم على مصالحهم أو لرغبتهم فى تملق الطبقات الدينية واكتساب مرضاة الجماهير ،وانطلقوا باسم الدين الى قتال بعض الطوائف والفرق الدينية ومناهضة رواد الفكر الحديث ومقاومة كل خارج على تعاليم الإسلام ... ومن هنا دخلت السياسة وتولت باسم الدين - فى كثير من الحالات - اضطهاد الاحرار (٢) ، فكانت مذابح وحروب قيل أنها تشبه من بعض الوجوه ما عرفته المسيحية من مذابح وحروب ، وإن لم تصدر مع قلة عددها وخفه تبعاتها - عن سياسة دينية أو مذهبية منظمة ترمى الى قمع الزندقة وتهدف الى التنكيل بكل من جنح عن تعاليم الإسلام

وقد اتخذت الزندقة صورا كثيرة حسبنا أن نشير الى أظهرها :

معنى الزندقة فى الاسلام .

باستقراء ما كتبه ابن النديم والخياط وابن قتيبة وغيرهم ، نلاحظ أن الزندقة كانت تطلق على المانوية الذين كانوا يردون العالم إلى مبدأين هما

(١) انظر ذلك فى كتابنا الشعرانى امام التصوف فى عصره ص ٨٢ - ٨٣ وفي كتابنا التصوف في مصر في ابان العصر العثمانى ص ٢٢٢ - ٢٣ وفى كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفه ص ١٣١ - ٣٢.

(٢) في كتابنا قصة النزاع بين الدين والفلسفة فصل مسهب عن موقف الاسلام وفقهائه من التفكير الفلسفى .

النور والظلمة، عن أولها صدر الخير وعن ثانيها نشأ الشر، ويحرمون الزواج طلبا لفناء الدنيا ويدعون الى الزهد ... الى آخر ماهو معروف عن مذهبهم. ثم أطلقت الزندقة بعد هذا على الإلحاد بوجه عام، وكانت تعبيرا عن الدهرية القائلين ببقاء الدهر .(١)

والملحوظ أنا لانجد لفظ الزندقة فى العصر الأموى إلا قليلا، ولكن الزندقة قد شاعت فى أوائل العصر العباسى واستفاضت أنباؤها، إذ كان البحث العلمى الذى يقترن فى العادة بالشك والإلحاد أظهر فى ذلك العصر منه فى العصر الأموى، وهذا بالإضافة الى أثر الفرس فى نشر المانوية والزرادشتية والمزدكية.

بل لقد اختلفت معانى الزندقة باختلاف الناس فى ذلك العصر. فأطلقها العامة - فى عهد جعفر المنصور - على الاستهتار والمجون والتدرج الى الخروج عن الدين أحيانا بألفاظ نابية، ثم المغالاة فى ذلك لمجرد التظرف! وكانت تطلق عند الخاصه على الذين يدينون بدين المجوس باطنا - ولاسيما المانوية - ويعتنقون الإسلام تقية أو توسلا الى إضلال الناس. وقد يظهر الزنادقة سافرين لايكلفون أنفسهم مشقة التظاهر بالتدين - كما يلاحظ عند أتباع دين المجوس.

وقد كان من معانى الزندقة الإلحاد الذى يتأدى بأصحابه إلى جحود

---

(١) احمد بك أمين: فجر الاسلام ص ١٢٧ - ٢٩ طبعة ثانية - وانظر مادة زندقة للمستشرق ماسنيون في دائرة المعارف الاسلامية.

الأديان جميعا ، وكانت الرغبة فى التخلص من تكاليف الدين من بواعث انتشارها بين المجان والمستهترين .

فشو الزندقة فى العصر العباسى

وقد كانت حركة الزندقة والإيمان - فيما يقول الأستاذ الجليل أحمد بك أمين - فى قتال مستحر ، استخدمت فيه وسائل الحروب من خدع ومكائد ووسائل سرية ولجوء إلى السيف وسفك للدماء أحيانا ، وعقد مجالس ومقارعة بالحجج أحيانا ثم الحرب سجال ، يوم ينتصر فيه الملحدون بما يثيرون من شكوك وأوهام ، وبما يضللون من ناشئة وشبان ، فإن عجزوا ظاهرا استعملوا طرق الغواية سرا تحت مظهر التشيع أو الغيرة على الاسلام أو نحو ذلك ؛ ويوم ينتصر فيه المؤمنون فينكلون بالملحدين تنكيلا ، ويوقعون بهم قتلا وتشريدا ، ثم بما يؤلفون من كتب ينقضون شبههم ويبطلون حججهم » .

اضطهاد المهدى والهادى للزنادقة

وقد وقعت أظهر حركات التنكيل بالزنادقة فى عهد المهدى ، إذ عين رجلا وكل إليه أمرهم ، هو عبد الجبار المحتسب صاحب الزنادقة فيما ورد فى الأغانى ، فأمر بسجنهم وإعدام بعضهم وإبادة كتبهم ! وقد أمعن فى قتل الملحدين الذين ظهروا فى أيامه وأعلنوا اعتقاداتهم فى خلافته ، وكانت هذه أول مرة عين فيها رجل يوكل إليه البحث عن الزنادقة والتنكيل بهم ، وكان المهدى أول من

أمر الجدليين من أهـــل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين ، أى أنه نظم دارا للبحث عنهم ومحاكمتهم ، وكون هيئة عليه لمناظرتهم وتأليف الكتب فى تفنيد أدلتهم ودحض مزاعمهم .

عقائد أهل البيت

وقد نصح ابنه الهادى فى متابعة سياسته فى التنكيل بهم قائلا : يابنى إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - المانوية - فانها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن - كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة - ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق ، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ؛ فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين . فقال موسى (ابنه الهادى) بعدأن مضت من أيامه عشرة أشهر : أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينا تطرف . ويقال إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع ، فقال هذا فى شهر كذا ومات بعد شهرين » .

وقد نفذ الهادى وصية أبيه وقتل من الزنادقة الكثيرين ، وبلغ الاضطهاد أقصى مظاهره بين سنتى ١٦٦ و ١٧٠ هـ ، إذ كان الزنادقة يؤخذون بالظنون والريب ، وكانوا إذا كابروا وأبوا العدول عن زندقتهم أعدموا .

اضطهاد الزنادقة بعد الهادى

وقد سلك هارون الرشيد مسلك سلفيه من الخلفاء ، فتعقب الزنادقة مع أنه أمن من كان هاربا أو مستخفيا . وتابعه المأمون فكان يمتحن الزنادقة الذين اتهموا باعتناق المانوية فيأمرهم بأن يتفلوا على صورة مانى ، أو غير هذا مما يكشف عن حقيقة عقيدتهم ، فان أبوا أمر بإعدامهم (١) ! .

وقد بلغ الإلحاد ذروته فى القرن الثالث عند ابن الراوندى ، وتحول عنده إلى مذهب عقلى يقوم على إنكار النبوة ومهاجمة الوحى وتمجيد العقل ونقد المعجزات وإعجاز القرآن والتواتر كمصدر للمعرفة . وبدا مثل هذا الإلحاد عند زكريا الرازى فى تمجيده للعقل ونقده للأديان كلها ومهاجمته للكتب المقدسة وإعجاز القرآن والقول بكفاية العقل لهداية الإنسان .. الخ (٢) .

وإذن فقد وقعت فى بعض مراحل الإسلام ألوان من الاضطهاد ، وفى ذلك تساق بعض الشواهد :

استئصال القرامطة

فشت الزندقة فى مطلع القرن الرابع على يد القرامطه الذين زعم شيخهم

---

(١) لخصنا الزندقة في العصر العباسى عن الفصل السادس من الجزء الاول من ضحى الاسلام — طبعة ثانية — للاستاذ الجليل احمد بك امين — وقد اعتمد في بحثه للزندقة على الاغانى والطبرى والمسعودي والعقد الفريد وغيره .

(٢) انظر في تفصيل هذا : من تاريخ الالحاد فى الاسلام لزميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوى (١٩٤٥)

ـ فيما يروى أبو الفداء الحموى ـ أنه داعية المسيح وأنه الكلمة وأنه ابن الحنفية وأنه جبريل وأنه المسيح يصور فى جسم انسان ، وقال له انك الداعيه وانك روح القدس ... وقد جعل قبلته بيت المقدس ، والصلات أربع ركعات ثنتين منها قبل طلوع الشمس وثنتين قبل غروبها ، وأحل الخمر ... الخ وكثر أتباعه وغزوا مكة ، وفتحوا دمشق الشام واستولوا على الكوفة ، وكان منهم الراوندى ـ الذى أسلفنا ذكره منذ حين ـ ويقول ابن الأثير إنهم سموا بعد ذلك بالإسماعيليه أو الباطنيه ، وقد فشى مذهبهم فى بلاد الفرس واستولوا فيها على كثير من الحصون والقلاع ، فطوردوا رغبة فى استئصالهم واشتد حصار بعضهم فى قلعة على كثب من أصبهان ، فكتبوا فتوى للسادة الفقهاء أئمة الدين عن رأيهم فى « قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن ما جاء به محمد (ص) حق وصدق ، وانما يخالفون فى الإمام ؛ هل يجوز للسلطان أن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى ؟ » فأجاز أكثر الفقهاء ذلك وتوقف عنه بعضهم ، وقال أبو الحسن على السمنجانى : « يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم ، ويجب أن يقال لهم : أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع أو حظر عليكم ما أباحه الشرع ، أتقبلون أمره ؟ فإنهم يقولون نعم ، وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع » واستطال الجدل بينهم ولكنه انتهى بإبادتهم جميعا.

مذبحة الشيعة

وقد روى ابن الأثير وقوع مذبحة للشيعة عام ٤٠٧ هـ ، إذ قتل منهم كثيرون

« وأحرقوا بالنار ونهبت ديارهم وقتلوا فى جميع إفريقيا ، واجتمع جماعة منهم أمام قصر المنصور ـ الفاطمى ـ قرب القيروان ، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم حتى اشتد عليهم الجوع ، فصاروا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم ، ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع فقتلوا كلهم ! »

وأكثر الشعراء من ذكر هذه المآساة ، بين حزين يؤذيه قسوتها ، ومبتهج يستخفه أمرها ! ويعلق المرحوم فرح أنطون على هذه الحادثة بقوله إنها شبيهة بمذبحة سان بارثلميو !! .

من آثار الجمود فى العصر الحديث

والمعروف أن الاضطهاد قد تسبقه مرحلة جمود وتزمت ، يضيق فيها الناس بكل جديد لم يألفوه من قبل ، وقد يبادرون باتهام أهله بالمروق والكفر وعندئذ يكون الاضطهاد ، إذ كثيرا ما تستجيب السلطات المدنية لمشاعر الجامدين وتنكل بكل من جنح عن القديم المألوف ، أو تضيق عليه الخناق على أقل تقدير ـ وهذا نفسه مظهر من مظاهر الاضطهاد ـ وقد نزل الجمود بالمسلمين وأقام بينهم طويلا ، وكان مثار الشكوى عند رواد الفكر الحديث والمستنيرين من أئمة الدين على السواء ، ومهد هذا الجمود لإغراء الجماهير بالتضييق على رواد الفكر ومطاردتهم وإثارة الفزع فى نفوسهم ، حتى تسكت أصواتهم ويكفوا عن مخاصمة ما ألف الناس ! وقد شكا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من

ذلك كثيرا وساق أمثلة وقعت فى عهده حسبنا ذكر بعضها والأمثلة وان كانت فردية إلا أنها تشير الى الروح الذى كان يهيمن على المعسكرات المحافظة فى ذلك العصر ، وتنبىء عن مدى ما اعتراها من جمود ، ومبلغ ما كان يخامرها من نزوع للاضطهاد ، وهو نزوع كان يمكن أن يشتد بأسه وتسوء مغبته ، لو أنه اقترن بسلطة زمنيه تمكن أهله من تحقيقه :

نماذج من شكوى الامام

فمن ذلك أن مسلما فى غير مصر قد كتب بضع مقالات فى الاجتهاد والتقليد ذهب فيها إلى ما ذهب إليه كافة أئمة المسلمين ، ونشر مقالا عن مذهب الصوفية صرح فيه بأن الإسلام لم ينتفع به بل رزىء به أو ما يقرب من ذلك - وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبل . فلما نشرت فى مصر تحت اسمه مقالاته « هاج حملة العمائم ، وسكنة الأثواب العباعب ، وقالوا إنه مرق من الدين أو جاء بالإفك المبين » ثم رفع أمره إلى الوالى ، فقبض عليه وألقى به فى غياهب السجن ! ولم يعف عنه إلا بعد أشهر !

ووضع السنوسى - والد السنوسى صاحب جغبوب - كتابا فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وصرح فى كتاب له أنه يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وأنه قد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين « فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية - رحمه الله تعالى - وكان المقدم فى علماء الأزهر الشريف ، فحمل حربته وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها ، لأنه

خرق حرمة الدين واتبع غير سبيل المؤمنين ..! ولكن الله قد وقاه شر هذه الجريمة ، إذ غادر القاهرة قبل وقوعها ..!

ونشر بعض علماء الأزهر مقالات مسهبة يستهجنون فيها إدخال علم الجغرافيا فى مناهج الدراسة فى الأزهر ، ويعرضون بمن أشار بإدخالها ويطعنون فى عرضه !

وعلماء الأفغان والهند والعجم - فيما يقول الإمام - على تمسك بالقديم شديد ، ينهضون لمحاربة كل من حاول أن يخرج بهم قليلا عما ألفوه مما كان عليه أسلافهم ، بل كانت تغالى حكومة المغرب حتى تعاقب ببتر بعض الأعضاء لمن ارتكب شرب الدخان ! أو بالقتل من أجل « كلمة ينكرها السامعون وإن أجمع عليها المسلمون الآخرون » !!

وكان المتوقع أن يثور اضطراب الأزهر متى أشار أحد بدراسة مبادىء الطبيعة أو التاريخ الطبيعى ، فتقوم « قيامة المتقين ويصيحون أجمعين أكتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين .. » ! (١) .

الجمود فى وقتنا الحاضر

وقد تردد صدى هذه النغمة بعد موت الإمام ، فى موقف الأزهر الشريف من

(١) محمد عبده : الاسلام والنصرانية ص ١٣٠ وما بعدها .

كتاب «الشعر الجاهلى» وكتاب « الإسلام والحكم فى مصر » وقد لقى المؤلفان الكثير من المتاعب من جراء ذلك (١) ، بل لبث الاتهام بالكفر قائما إلى عهد قريب ولعل آخر عهدنا به كان يوم وجه على صفحات الأهرام للتهديد بلجنة جامعية تشكلت لتيسير قواعد النحو على طلاب المدارس فيما أذكر ! وكان لأحد أعضائها رد رصين متزن أسدل الستار على هذه الضجة .

وفى الحق لقد تغير الناس فى مصر - وفى غير مصر فى بلاد العالم الإسلامى فيما يلوح - وما من شك فى أن المرحلة الأخيرة من عصرنا الحديث تبشر بتطور له خطره العظيم فى حياتنا المقبلة ، وقد وقف الأزهر الشريف فى طليعة هذه الحركة ، وأصبح لعلمائه الصدارة فى مهاجمة الجمود وإنارة الأذهان وتطهير الصدور من أدران الحقد والتعصب .

حسبنا هذا عما قيل عن اضطهاد الزنادقة فى الإسلام ، ولنعرض فى إيجاز إلى بعض ما قيل عن اضطهاد الذميين :

اتهام الفاروق باضطهاد الذميين

ومن طريف المفارقات أن يتهم الفاروق باضطهاد الذميين من مسيحيين

---

(١) كانت جماعة كبار العلماء قد جردت فى عام ١٩٢٥ مؤلف الكتاب الثانى من لقب العالمية ، وبعد نحو اثنين وعشرين عاما - عند طبع هذا - أعدت رياسة مجلس الوزراء مرسوما ملكيا بتعيين هذا المؤلف وزيرا للاوقاف ، فأثار بعض حضرات العلماء مشكلته القديمة لان قانون الازهر لايجيز لمن أدين على هذا النحو أن يشغل وظيفة عامة ، ووقف بالفعل تعيينه. ولكن العلماء قد عادوا والتمسوا من جلالة الملك اصدار عفو عنه توطئة لتعيينه وزيرا .

ويهود ! قيل إنه أول من وضعهم فى مرتبة أدنى من مرتبة المسلمين ، وغالى فى هذا الصدد حتى أذل أعناقهم جهرة عيانا ! روى ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب قد « كتب أن يختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص ، ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الأكف عرضا ، ولا يضربو الجزية إلا على من جرت عليه المواسى ، ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين فى لبوسهم ، (١) وقيل إنه حرم عليهم رفع الصليب على كنائسهم أو العمل على إقامة كنائس أو بيع جديدة .. الخ ويقال إن هذا قد مهد لاضطهاد الذميين فى الفترات التى اشتد فيها جمود الناس . ولنا على ذلك تعليق نرجئه إلى حينه .

قيل إن الإسلام يحمل نصيبا فى تبعة ما أسلفنا من وجوه الاضطهاد ، وربما قيل فى التدليل على هذا إن القرآن يؤيد الاستشهاد فى سبيل الله تأييداً مطلقا ، فلنقف هنا وقفة قصيرة لنعرض مايحتمل أن يقال فى هذا الصدد ، ونعقب بمناقشته عسى أن يضيء لنا هذا مايبدو مظلما فى جوانب موضوعنا :

الاستشهاد فى القرآن الكريم

أقر القرآن الكريم الاستشهاد فى سبيل الله وأكبر من شأن الشهداء الذين يقعون صرعى فى ساحة الجهاد قال تعالى : «ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لاتشعرون ، ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ع ٤ ص ١٥١ طبعة ليون ١٩٢٠م.

ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » (١)

وتأكيد هذا المعنى فى قوله تعالى «ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون » (٢)

فأما الآية الأولى فقد نزلت فى شهداء بدر الذين بلغوا أربعة عشر رجلا، إذ قال المنافقون - أى المتظاهرون بالإسلام - إن الشهداء يقتلون أنفسهم مرضاة لمحمد على غير هدى ، فنزلت الآيه الكريمة تحث على الاستعانة بالصبر والصلاة وعدم الظن بأن الشهيد قد ضيع نفسه ، وتصرح بأن المشركين يجهلون أن الشهداء أحياء فى الدين وعلى هدى من ربهم ونور ،وأنهم سيثابون وينعمون فى الجنة « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم » . وتنذر الآية الشهداء بأنهم سيعانون المشقات ولكن القيام بالشرائع يتطلب احتمال المحن ، وهذا ابتلاء يراد به أن يوطن الإنسان نفسه على الصبر فيبعد عنه الجزع ، والابتلاء محك الصدق فى الإيمان . . وليست المحن فى هذا الصدد عقوبات ، فقد وعد الله فى

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٣ - ١٥٦ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٨ - ١٦٩ .

المؤمنين وفى مقدمتهم الرسول وصحبه (١)

أما الآية الثانية فقد نزلت فى شهداء بدر وأحـــد ، حين ثبط المنافقون الراغبين فى الجهاد فقالوا إنه يفضى إلى الموت ، كما قالوا ذلك فى حق من فزع إلى الجهاد يوم أحد ، وقالوا إن القتل شىء مكروه، وردت دعواهم بأن القتل إنما يحدث بقضاء الله وقدره، وكذلك الحال فى الموت فالاحتراز لايجدى صاحبه ، ثم إن القتل فى سبيل الله غير مكروه لأن أصحابه يلبثون أحياء (٢) ، وقد خصهم الله بدرجات القربة والكرامة ومنحهم أفضل أنواع الرزق وأوصلهم إلى أجل مراتب الفرح والسرور ، ومن قعد عن الجهاد جاز أن يفوز بنعيم الدنيا وهو تافه زائل، ومن خف للجهاد فاز بنعيم الآخرة وهو عظيم ومقيم (٣)

الاستشهاد عند رسول الله

كان طبيعيا بعد هذا أن يكون حظ الاستشهاد من إكبار رسول الله عظيما ، وليس أدل على ذلك من موقفه من شهداء غزوة مؤتة بوجه خاص، إذ استشهد فيها - على ما أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب - زيد بن حارثة

---

(١) رجعنا فى تفسير هذه الآية الى الفخر الرازي في مفاتيح الغيب ح ٢ ص ٣٥ وما بعدها

(٢) اختلف المفسرون في تأويل هذا اللفظ ، ولعل أدنى ماقيل الى العقل ، انه تعبير مجازى كما يقال للجاهل الذى لاينفع نفسه ولا غيره انه ميت ، ولمن خلف الذكر الطيب انه حي لم يمت ، وقد فصل الرازي كعادته فى بيان الخلاف بين المتكلمين والفلاسفه في معنى الفرح الوارد في الآية وفى معانى غيره من الفاظ ، فليرجع اليه من شاء مزيدا .

(٣) انظر فى تفسير الاية الرازي فى مفاتيح غيبه ح ٣ ص ٩٣ وما بعدها .

ثم جعفر بن أبي طالب ، وقد أخذ الراية منه ابن رواحة وتقدم بها وهو على فرسه ولكنه تردد بعض التردد ثم تناول سيفه وتقدم به مقاتلا حتى راح شهيدا .

ولما علم النبي نبأ هؤلاء الشهداء الثلاثة « كان على زيد وجعفر أكبر أسى ، وقال : لقد رفعوا إلى فى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحه ازورارا عن سريرى صاحبيه ، فسأل لم هذا ؟ فقيل له : مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى » . !

بهذا أوجب رسول الله على المؤمن ألا يمتنع أو يتردد عن الموت فى سبيل الله ، وأن يحمل حياته على كفه ويلقى بها فى وجه من يقف فى سبيله ، فإما ظفر بالغاية أو استشهاد فى سبيلها .. وملعون من ينكص على عقبيه طمعا فى جاه أو مال أو غرض من أغراض الحياة (١) .

حب المؤمنين للاستشهاد فى سبيل الله

كان طبيعيا بعد هذا ، أن يهز حديث الاستشهاد نفوس المؤمنين ، ويدفعهم إلى ساحة الوغى وقد استخفهم الرضا وشاعت فيهم الغبطة طولا وعرضا ، وما نسوق إلا شاهدا واحدا ندلل به على صدق ما نقول ، ذلك ما كان من أمر

---

(١) هيكل ص ٣٩٣ ـ ٩٤ .

المؤمنين وإقدامهم على القتال يوم أحد ، إذ رأى بعض المسلمين أن يتحصنوا بالمدينة ورأى غيرهم أن يخرجوا للقاء العدو ، وقد أثاروا القلوب بالتحدث عن الشجاعة والاستشهاد ، وعن الجنة التى أعدت لمن يقتل فى سبيل الله ، وقد قال خيثمة أبو سعد بن خيثمة « عسى الله أن يظفرنا بهم أو تكون الأخرى فهى الشهادة ، لقد أخطأتنى وقعة بدر وكنت عليها حريصا ، حتى بلغ من حرصى عليها أن ساهمت ابنى فى الخروج ، فخرج سهمه فرزق الشهادة . وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم وهو يقول : ألحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً . وقد والله يارسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته فى الجنة ، وقد كبرت سنى ورق عظمى وأحببت لقاء ربى » (١)

كان طبيعيا جداً أن يحدث هذا وأكثر منه ، بعد الذى لقيه الإستشهاد فى آيات العزيز الحكيم وأحاديث رسوله الأمين من وجوه الثناء والإكبار ، ومن أجل هذا كانت حماسة المؤمنين فى قتال المشركين ومن إليهم ممن يخشى أن تعصف ثورتهم بالعقيدة التى نزل بها الإسلام . وباسم هذه الروح - فيما يقال - قد وقعت بعض الملاحم - مع براءة الدين من وصمات الإكراه ، وصراحته فى تحامى وقوع المذابح والفتن والحروب .

القتال المباح فى الاسلام

فى الحق إن الوحى قد نزل بالتسامح على محمد منذ هجرته ، فجنح للسلم ورغب

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٣ - ٨٤ .

عن القتال واقتصد فيه طوال حياته أشد القصد ، وإنما أبيح القتال فى سبيل غاية واحدة هى كفالة العقيدة والرأى ، وفى سبيل الدفاع عنها « أبيح دفع المعتدى حتى لا يفتن أحد عن دينه ، ولا يظلم أحد بسبب عقيدته أو رأيه » (١)

على أن الإسلام ينكر حرب الاعتداء « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٢) » ولكن دفع فتنة المؤمنين عن دينهم بالقوة ، كان الغاية الأولى التى شرع من أجلها القتال ، ويشهد بهذا ما نزل من الآيات فى سرية عبدالله بن جحش الأسدى ، فقد أحل الله القتال من أجل هذه الغاية فى الشهر الحرام ، قال تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا (٣) »

ومعنى هذا أن القتال فى نظر القرآن من الكبائر ، ولكن الصد عن سبيل الله والكفر ، أكبر من القتال فى الشهر الحرام ، « وفتنة الرجل عن دينه بالوعد والوعيد ولإغراء والتعذيب ، أكبر من القتل فى الشهر الحرام وفى غير الشهر الحرام » . وقد ظن بعض المستشرقين أن محمداً يدعو بهذا إلى القتال

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٢١٧ – ٢١٨ و ٥٦١ من الطبعة الثانية وقد رجع فى تفسير الآية السالفة الى الطبري وابن جرير .

(٢) البقرة آية ١٨٩

(٣) البقرة آية ٢١٦

والجهاد بالسيف فى سبيل الله ، وإكراه الناس بالقوة على اعتناق الإسلام ، وهذه فرية تشهد بها آيات الله فى كتابه المجيد كما سنعرف بعد قليل .

الجهاد فى الاسلام

فالجهاد فى الإسلام معناه « قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدون عن سبيل الله » فهو دفاع عن الرأى بسلاح الذين يهاجمون هذا الرأى ، متى كان هذا ممكنا (١) .

وقد أقر الإسلام قتال الثائرين على عقيدته المعنوية العامة ، فإن كانت ثورتهم جامحة وجب قتالهم حتى يذعنوا ، وإن كانت غير جامحة - كثورة أهل الكتاب - وجب أن يلزموا بدفع الجزية عن يد وهم صاغرون . ومن التجنى أن يعاب هذا بحجة أنه محاربة لحرية الرأى ، فان الحضارة الأوربية الحديثة وإن كانت تقوم على حرية الرأى ، فانها ترى أن التشريع ليس إلا قمعا لحرية الرأى له ما يسوغه ، وأن الثورة على الشر واجب لا مفر منه ، ومن أجل هذا حاربت الرق ومحلات العرى وإفساد الأخلاق ونحوه (٢) .

فالجهاد - وحسبنا منه معناه ومبرراته فى الإسلام - هو استفراغ الوسع فى مدافعة العدو ومجاهدة الشيطان والنفس ، ومن غايات القتال فى الجهاد

---

(١) انظر هذا مفصلا في هيكل ص ٢٤٣ - ٢٤٧

(٢) هيكل ص ٤٥٨ - ٤٦٢ .

منع الفتنة فى الدين ، أى منع اضطهاد الناس من أجل دينهم وإكراههم على تركه ، وقد فرض القتال على المؤمنين ليقاتلوا من يقاتلهم ويعاديهم فى دينهم .

ومسألة جهاد العدو بالسيف ليس فيها إجماع من المسلمين إلا فى حالة اعتداء الأعداء إذ يتعين الجهاد : عندما يلتقى الجيشان ، أو ينزل الكفار ببلد ما ، أو يستنفر الإمام قوما فيلزمهم النفير معه .

والإسلام - بعد هذا - يمنع الحرب للاكراه على الدين أو الإبادة أو الاستعباد الشخصى أو القومى أو لسلب الثروة أو القهر أو نحوه (١)

الحرية فى الاسلام :

وقد أقرت شريعة الإسلام حرية الضمير والعبادة وكفلتها لأتباع كل دين يحيا فى ظل الأسلام ، ومنع الإكراه على اعتناقه ، قال تعالى فى سورة البقرة «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وقال فى نفس السورة : «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» وقال تعالى فى آل عمران : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » وقد عقب رسول الله بفيض من الأحاديث النبوية يؤيد بها التسامح المحمود - وهذه الأحاديث لم تصدر عن حماسة رجل ضعيف لا حول له ولا قوة ، ولا عن فلسفة حالم قصت القوى المعادية جناحه ، ولكنها صدرت عن رجل كان فى أوج

---

(١) السيد محمد رشيد رضا فى الجزء الحادى عشر من التفسير

قوته على رأس أمة فتية منظمة قادرة على أن تفرض بحد السيف عقيدتها . ولم تكن الدعوة إلى التسامح فى الإسلام وليدة الضعف والحاجة إلى المعاملة اللينة ، بل لقد صاغ محمد التسامح قانونا أقر فيه حرية العبادة حقا للشعوب المهزومة ، ومن أبى منهم الإسلام ألزم بدفع الجزية وبقى حراً فى عقيدته ـ فلم يزاول الإسلام الاضطهاد ولم ينشىء رجاله قط محكمة تفتيش ... (١)

موقف الاسلام من الذميين :

أشرنا فيما أسلفنا إلى أن الإسلام لايقر القتال لغير الثائرين على عقيدته ، بل يقنع بالجزيه ممن كانت ثورتهم غير جامحة ، وحين اطمأن رسول الله فى مقره بيثرب وضح اتجاهه الى تأييد كل من اتبع الهدى ودخل فى دين الله ،وظهر حرصه على كفالة حرية العقيدة لأتباعه وغير أتباعة على السواء ، بحيث يتساوى عندها المسلم والنصرانى واليهودى جميعا ـ قال تعالى «إن الذين آمنو والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » (٢)

وبهذا أقر القرآن التسامح فى أرحب آفاقه ، فمن آمن بالله واليوم الآخر

(١) Ameer Ali, The Spirit of Islam Part II ch. 4.١٣.٢١٢ وخصوصاص
وانظر مقارنته بين تسامح الاسلام وتعصب غيره من الاديان في هذاالفصل وغيره .

(٢) سورة البقرة آية ٦١ والمراد بالذين هادوا من اعتنقوا اليهودية وبالصابئين من لادين لهم ـ اوهم الذين يعبدون الملائكة . أوهم الذين يدينون بالتوحيد وليس لهم كتاب ولا نبي ـ على خلاف فى التأويل .

وعمل صالحا فله أجره عند ربه ، من غير تفرقة بين المؤمنين وغيرهم من اليهود والنصارى والصابئين .

ومن هنا يستبعد المنصف ما اتهم به الفاروق من اضطهاد الذميين أو إساءة معاملتهم ـ فان من يدين بالاسلام الصحيح ويعرف ألا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، لا يمكن إلا أن تصفو نفسه من إحن التعصب ، ويفيض قلبه بالتسامح والعفو والرحمة .

سماحة الفاروق مع المسيحيين :

وحسبنا فى دحض اتهام الفاروق باضطهاد الذميين أن نذكر نص الصلح الذى عقده مع رسل صفرنيوس أسقف بيت المقدس كنموذج لموقفه من المسيحيين إذ قال ـ فى رواية الطبرى .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو

آمن وعليه مثل ماعلى أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ماعلى أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله . وانه لايؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » . وختم عمر الكتاب بتوقيعه وشهد عليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاويه بن أبى سفيان .

وهكذا كان عمر بن الخطاب مع قبط مصر أقرهم وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وعقائدهم ، فلا يضار أحد بسبب دينه ولايكره على شيء فى أمره ، من شاء منهم أن يرحل مع الروم كان له ما أراد ، ومن شاء من الروم والأجانب المقيمين بالمدينة أن يظل بها بقى آمنا وليس على أهل المدينة إلا أداء الجزية لقاء منعهم وكفالة أمنهم . (١) وبمثل هذا كان يعامل الفاروق الذميين فيما نعلم .

أسباب ما ألفناه من وجوه الاضطهاد

إذا كان هذا هو موقف الإسلام والمؤمنين من أهله ، فكيف وقع ما رويناه من وجوه الاضطهاد فى بعض مراحل التاريخ ؟ إن الاضطهاد الذى

(١) هيكل ج ١ الفاروق ص ٢٥٦ ـ ٢٥١ طبعة أولى .

وقع فى العصر العباسى مرجعه فى الأغلب والأعم إلى أسباب سياسية أو خصومات شخصية أو أدبية أو دينية أو عقلية لا يحمل الدين وزرها ، ومثل هذا يقال فى كل وجوه الاضطهاد التى تعزى إلى الاسلام زورا وبهتانا .

أما استئصال القرامطة فإن مرجعه الى ثورتهم الجامحة على العقيدة الإسلامية، وتمردهم على أبسط قواعد الأمن ، ومن أجل هذا كان قتالهم اتقاء لشرهم ودفعا لعدوانهم ومنعا لحركات السلب والنهب والتدمير ، وحرصا على كفالة الأمن والسلام بين الناس .

وأما تشبيه موقعة الشيعه بمذبحة سان بارثلميو ، فحسبنا فى التعليق عليه أن نذكر القارىء بما رويناه عن تلك المذبحة وموقف أولى الأمر منها وابتهاج البابا بآثارها ، لنعرف الفرق بين معركة ينص مؤرخها - ابن الأثير - على أن قتلتها هم « العامة » وبين مذبحة يدير أمرها ويطرب لها أهل الحكم الدينى والسياسى معا ! وإن كان من الإنصاف أن نقول إن الديانتين بريئتان من وصمة الدم الذى أريق فى كلتيهما.

معقب

وهكذا مكن الإسلام لمبدأ التسامح وأقر حرية الضمير والاعتقاد بما لا يدع مجالا لشك ، فحرم الإكراه على اعتناق الدين فى وقت كان يقوى فيه على فرض عقيدته بحد السيف . وقنع من الذميين بدفع الجزية وكفل لهم حرية

العبادة . ولم يبح القتال إلا حرصا على كفالة العقيدة والرأى ، ودفعا للمعتدى حتى لا يفتن أمرؤ عن دينه ولا يضار أحد بسبب عقيدته ، وفى سبيل هـذا وحـده أحـل القتـال وكـان الاستشهاد فى سبيل الله موضع الثنـاء والتقدير .

أما مـا عرف فى بعض مراحـل الإسـلام من وجـوه الاضطهـاد ـ مع قلته وخفة تبعاته ـ فإن مرجعه كما قلنـا إلى أسبـاب سياسية أو دوافع شخصية أو بواعث عقلية ـ وهى أسباب لا يحمل الدين وزرها فى كثير ولا قليل..

وقاتل الله الذين اتخذوا الإسلام ـ أو غيره من الديانات ستارا يخفون وراءه نزعاتهم الشريرة ، ويرتكبون باسمه من الآثام مانزلت الأديان لتدفع الناس عن ارتكابه ، وتصرفهم إلى أسمى مبادىء الخير والحق والجمال ، ولا عبرة بعد هذا بما يحتمل أن يقال من أن نصوص العقائد إن برئت من دم الجريمة الآثم ، حملت آثارها السيكولوجية فى نفوس المؤمنين بها وزر أثمها عدلا وإنصافا ـ أو كان لها فى تبعه الاضطهاد نصيب على أقـل تقدير ـ إن فى هذا تجنيا صارخا واضح البطلان ، لأنه يكاد يلغى الفروق التى تفصل بين البراءة والإجرم

كلمة أخيرة

كلمة اخيرة

بدء التسامح الديني - مراحل التسامح - أثر المذهب العقلي في تقويض الاضطهاد - انتفاء العدالة باجتماع التعصب والسلطة - متي ينجح الاضطهاد ومتي يفشل - التسامح الديني بين المدنية الاوربية والقرآن الكريم - استمرار التعصب الديني في أوربا الحديثة - موقف مصر الحديثة من مقاومة الاضطهاد - موقف المسيحية من التعصب في اوربا - تبعة النصوص المقدسة في الاضطهاد .

بدء التسامح الدينى

منذ ثلاثة وعشرين قرنا من الزمان ، اصطرعت فى الهند « البرهمانية والبوذية ، وضاق بصراعهما الملك الهندى السمح « أسوكا » Asoka ، فأصدر مرسوما يقضى بأن تتساوى حقوق هاتين الديانتين وامتيازاتهما فى ملكه ..! فكان هذا أول مرسوم بالتسامح الدينى فى تاريخ البشر ..!

أما فى أوربا فان أول مرسوم قضى بالتسامح قد صدر فى عام ٣١١ وتلاه مرسوم ميلان عام ٣١٣ من ميلاد المسيح ، على ما عرفنا عند الحديث على الاضطهاد الذى نزل بالمسيحية ، ولكن هذين المرسومين لم يقضيا على الاضطهاد ، بل حولا دفته ..! إذ بدأت الكنيسة تتولى خصومها بالاضطهاد وكانت إلى الأمس القريب من ضحاياه !

مراحل التسامح

ولبث الحال على هذا - بوجه عام - حتى ثارت مشكلة التسامح الدينى فى القرن السادس عشر ، حين اشتد النزاع بين معسكر المصلحين من البروتستانت،

وظهر التسامح فى صور متعددة عاشت عدة قرون ! تراوحت فيها بين الرغبة فى منحه لبعض الشيع المسيحية دون غيرها ، أو لأتباع المسيحيـــة على اختلاف نحلهم دون غيرهم من أهل الأديان الأخرى ، أو توفيره. لكافة الأديان وسلبه عن أحرار المفكرين ، أو حرمان الملحدين والمارقين منه مع إبقائه للمؤلهة الذين يعـــترفون بوجود إله هدت إليه طبيعة العقـــل البشرى ، وينكرون الوحى والرسل والكتب المقدسة وما يلحق بهـــا ... إلى آخر هذه الصور التى عرفنا أمرها فى هذا الكتاب . ولكن أحرار الفكر قد واصلوا جهودهم حتى تجاوزوا مراحل هذا التسامح ، إلى إقرار الحرية الدينية فى القرن الغابر ... بعد ثلاثة قرون تكدست فيها جثث الشهداء فى ميادين الجهاد أكواما ..

أثر المذهب العقلى فى تقويض الاضطهاد

وقد عرفنا أن الإصلاح الدينى قد مهد لطلب التسامح على كره منه وغير قصد من رجاله .. ! وأن الشيع التى جاهرت به وبشرت بإذاعته أدخلها المصلحون فى زمرة المارقين .. ! وأن ماحدث بعد ذلك من تقويض التعصب وتطهير القلوب من فكرة الاضطهاد ، مرجع الفضل فيه الى ظهور المذهب العقلى الذى أقر سلطان العقل ومكن للثقة بمنطقه عند أحرار الفكر فى انجلترا وفرنسا بوجه خاص ، وقد بذت النزعة العقلية فى الشك الذى ساور رءوسهم واتجه بهم الى زعزعة الأسس التى قام عليها التعصب واستند اليها الاضطهاد .

ومما أسلفناه فى فصول الكتاب من عرض خاطف لظاهر الاضطهاد الدينى

وبواعثه نلاحظ :

انتفاء العدالة باجتماع التعصب والسلطة

إن التعصب إذا أيدته سلطة زمنية حمل أصحابه على جناح العنف البالغ الى التنكيل بخصومهم فى غير رفق ولا رحمة ، وأن المتعصب المتزمت لا يدعو الى التسامح الا حين يكون موضعا لاضطهاد ، كان هذا أمر الكثيرين من المسيحيين مع الوثنيين فى بدء عهدهم ، فلما استقر نفوذهم وتهيأت لهم السلطة نزعوا الى اضطهاد اليهود والوثنيين وغيرهم من الملحدين ؛ وكذلك كان الحال مع البروتستانت ، مجدوا من شأن التسامح فى بدء حياتهم مع أصحاب السلطة من الكاثوليك ، فلما ظفروا بالسلطان نكلوا بخصومهم من الكاثوليك والملحدين شر تنكيل ؛ وكذلك كان الحال عند بعض المسلمين ، وحسبك أن تذكر ما وقع للمعتزلة حين واتتهم السلطة فى عهد المأمون والمعتصم ، لم يقنعوا بالتزام الحجة والمنطق العقلى ، بل حكموا السيف فى رقاب مخالفيهم !

متى ينجح الاضطهاد ومتى يفشل

على أن الغلبة فى هذا النزاع كله كانت على الدوام لمن كان أقوى إيمانا وأشد تعصبا ، ولا عبرة بعد هذا بكثرة العدد أو قلته ، وقلة جريئة متعصبة أقدر على نصرة المبدأ من كثرة ضعيفة متخاذلة ، ولا قيمة لاضطهاد المؤمنين والمتزمتين إذا لم يتكفل هذا الاضطهاد بإبادتهم واستئصال شأفتهم من الوجود ؛ لأن الإيمان إذا كان يزحزح الجبال ـ فيما يقول الإنجيل ـ فإنه لا يقوى على زحزحتها

اذا اتصلت ذروتها بالسماء ؛ ويكون نجاح الاضطهاد مكفولا حين يبقى على الإيمان نفسه ويقنع بتغيير مجراه ، بهذا زالت ديانات ومذاهب ، وأخذ غيرها مكانها فى قلوب الناس على مر التاريخ . هذه فكرة يشهد بها انتصار الاضطهاد الدامى على الاسلام فى أسبانيا وعلى الألبيجيين والجانسنست وغيرها من الشيع الدينية فى المسيحية ، وعجز الاضطهاد عن مقاومة المسيحية أو البروتستانتيه على ماعرفنا .

وهذا على عكس الاضطهاد إذا كان يهدف الى « إلغاء » فكرة صحيحة تكشف عنها البحث العلمى أو النظر الفلسفى - كما قلنا فى مقدمة الكتاب ، لأن مثل هذا الاضطهاد يستطيع أن يستأصل أتباع هذه الفكرة فى زمان ومكان ما، ولكن الفكرة لاتلبث حتى تجد أنصارا جددا يستأنفون تأييدها وعلى يدهم يكون انتصارها - طال العهد بتأييدها أو قصر ؛ وقد أبنا عن هذا بالتفصيل فى كتابنا « قصة النزاع بين الدين والفلسفة » .

التسامح الدينى بين المدنية الاوربية الحديثة والقرآن الكريم

وقد عرفنا ، أن التعصب الدينى لبث جاثما فى صدور الناس فى أوربا حتى القرن الثامن عشر ، وأن ألمانيا قد سبقت إلى تأييد هذا المبدأ الكريم ، وأن فردريك الأكبر حين ولى عرش بروسيا فى القرن الثامن عشر ، قد رأى أن من حق كل إنسان أن يصل إلى الجنة بالطريقة التى تروقه ، فكانت هذه وثبة فى تاريخ التسامح ، بل كانت حدا فاصلا بين عهدين، واتسعت الهوة بين بروسيا فى

عهده ، وانجلترا تحت حكم جورج الثالث وفرنسا تحت إمرة لويس الخامس عشر وإيطاليا تحت كابوس البابوات . .

ولكن - ألم يكن موقفه متمشيا مع ما نزل به القرآن الكريم قبل عصره بنحو أحد عشر قرنا حين قال : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » أو حين قال « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

أو حين سوى - الإسلام - بين الناس فلم يجعل لعربى على عجمى فضلا إلا بالتقوى ، ووعد بالخير كل من آمن وعمل صالحا ، سواء أكان من المؤمنين من المسلمين أم غيرهم من اليهود والنصارى والصابئين على ما عرفنا من قبل ؟

استمرار التعصب الدينى فى أوربا الحديثة

ولكن من قال إن المدنيه الغربية قد قضت على التعصب الدينى ، وأشاعت روح التسامح بين الناس ..؟ إن التعصب لايزال يستبد بهوى الناس فى أوربا الى عهدنا الحاضر ! وليس أدل على هذه الروح من كلمة اللورد اللنبى حين استولى باسم الحلفاء - انجلترا وفرنسا وايطاليا وأمريكا ورومانيا - على بيت المقدس فى أواخر الحرب الكبرى الماضية - عام ١٩١٨ - فقال عندهيكل سليمان : « اليوم انتهت الحروب الصليبية ... ! وعقب على هذا الاستيلاء الدكتور بيترسون سميث فى كتابه عن سيرة المسيح بقوله « إنه كان حربا صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها .. !

ومنذ بضع سنوات كان « تشرشل » يثير حقد العالم على « النازية » ويستفز

الرأى العام فى الحرب الأخيرة ، فيدعو فى خطبه إلى قتال الألمان إبقاء على «المدنية المسيحية».. وكان المستعمرون من أمثال اللورد كرومر يزعمون أن الانجليز دخلوا مصر فى عام ١٨٨٢ لينشروا الحضارة الإنسانية وفاقا لتعاليم الدين المسيحى !

موقف مصر الحديثة من مقاومة الاضطهاد

وبهذه الروح تقع الاضطهادات الدينية فى أوربا الحاضرة ، وحسنا فعل وفد مصر فى هيئة الأمم المتحدة - وعلى رأسه الدكتور هيكل باشا - حين اقترح فى أخريات عام ١٩٤٦ أن تتخذ الجمعية العمومية للهيئة « أسرع التدابير وأفعلها لوضع حد للاضطهادات الدينية فى أوربا الوسطى، لأن التحقيقات التى أجريت فى مختلف دول أوربا الوسطى ، قد أثبتت « أن السكان الذين ينتمون إلى أقليات دينية ، لا يزالون - رغم انتصار الديمقراطيات - معرضين للاضطهاد وللتحامل الدينى ، وهى حالة تجعل حياتهم فى منتهى الصعوبة فى بلاد لهم حق واضح فى أن يتساووا فيها مع كل من عداهم من سكان هذه البلاد »

وإذا كان لنا أن نعلق على الاقتراح المصرى بشىء ، فذلك أنا نلاحظ ما لاحظه الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك فى مقال له من قبل، حين آخذ الوفد المصرى على قصر اقتراحه على أوربا الوسطى ، وكان الأحرى أن يشمل الهند وفلسطين وإفريقيا الشمالية وغيرها من البلاد التى تعانى عذاب الاضطهاد الدينى فى وقتنا الحاضر . . ولو تجاوز الاقتراح المصرى نطاقه الضيق إلى التعميم لكان من المحتمل ألا يثير فى هيئة الأمم المتحدة الجدل العنيف الذى أثاره ، وألا ينتهى

بالأعضاء إلى رفض إدراجه فى جدول الأعمال .. ! مع تسليمهم بأن الاضطهاد فى كل صوره ، يتنافى مع أيسر مبادىء الديموقراطية وأبسط أصول الحضارة وأقل مظاهر الكرامة الإنسانية (١) .

موقف المسيحية من التعصب فى أوربا

على أن من الإنصاف أن نكرر ما قلناه فى أكثر من موضع ، من أن المسيحية السمحاء بريئة من تبعات الدم الذى أريق باسمها ، والنفوس التى زهقت من أجلها ، وما أجل المسيح ـ عليه السلام ـ حين يقول فى خطبته على الجبل : سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا .. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم ، أحسنو إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم » ...!

بهذا الروح السمح جاءت المسيحية ، وسرعان ما تحول فى قلوب المتزمتين تعصبا جارفا يجتاح كل مبدأ كريم ، وحقدا مضطرما يدفع أصحابه إلى ارتكاب كل جرم أثيم ..!

ومع ما لقى موكب الحرية الدينية من مصاعب ومشقات ، مضى فى طريقه قدما وتخلف الرجعيون وفاتهم الركب ، فعسكروا حيث كانوا وقد قل عديدهم

---

(١) من أجل هذا عادت جمعية الأمم المتحدة فقررت اقرار الاقتراح باجماع الآراء .

واضمحل نفوذهم وتضاءلت آمالهم ، وباتوا يسرحون الطرف فى مواكب الحرية الظافرة فيرتد بصرهم خاسئا وهو حسير ...

تبعة النصوص المقدسة فى الاضطهاد

وبعد ، فقد قيل على ما أشرنا من قبل - إن الذى يعنينا من الأديان ليس نصوصها المدونة فى بطون الكتب المقدسة مستقلة عن نفوس المؤمنين بها، بل يعنينا آثارها السيكولوجية فى نفوس معتنقيها، وإذا كانت النصوص خلواً من كل دعوة تدفع إلى القمع والتنكيل والاضطهاد ، فإن الإيمان بها يفضى من الناحية السيكولوجية لامحالة إلى نتائج قد لاتتمشى مع حرفية هذه النصوص ! ومن أجل هذا لازمت البدع الأديان مع براءة نصوص هذه الأديان من وصماتها .

فى الحق إن إثارة مثل هذا الاعتراض لاتكون متمشية مع منطق العقل إلا حين تهدف إلى إلغاء الإيمان والانصراف عن اعتناق الأديان . وقد قلنا فى مقدمة الكتاب إن الإنسان بطبيعته لايستطيع - بالغا مابلغ احترامه لشريعة العقل - أن يحيا فارغ القلب ، وليس الإلحاد فى كل صوره إلا إيمانا انحرف عن طريقه المرسوم ، ومن هنا قال الذين أرخوا ظاهرة التدين فى كل زمان ومكان : لايموت فى قلب الإنسان إله حتى يحتل مكانه إله آخر ! ناهيك بما يترتب على الإيمان من وجوه النفع الأدبى والمادى على السواء . وفى مقدمة الكتاب غنية عن التفصيل

إذا كان هذا هو شأن الإيمان من حيث إنه ضرورة لا مفر منها، ومن حيث إنه نافع للأفراد والجماعات - أدبيا وماديا - وجب إغفال كل اعتراض يكون من شأنه الحط من جلال الإيمان. أما إلقاء تبعة الاضطهاد على عاتق الأديان مع خلو نصوصها من أية إشارة تحملها وزر هذا الاثم، فان فى هذا - كما قلنا فى نهاية الفصل السالف - تجنيا صارخا واضح البطلان، لأنه يكاد يلغى الفروق التى تفصل بين البراءة والإجرام!

أهم مصادر الكتاب (١)

ا ـ مصادر عامة :

W.E.H. Lecky. Hist. of the Rise & Influence of the Spirit of Rationalism in Europe 2 vols. 1865.

ولا سيما الفصل الاخير فى الجزء الاول والفصل الاول فى الجزء الثانى.

J.B.Bury. A History of Freedom of Thought 1920.

له ترجمة للاستاذ محمد عبد العزيز اسحاق تحت عنوان «حرية الفكر» ٩٤٦.

E.S.P.Hynes. Religious Persecution (1904)

Van Mildert. Historical View of the Rise & Progress of infidelity 1808.

A. D. White, Hist, of the Warfare of Science with Theology in Christendom 2 vols.

ترجم شطرا كبيرا من الجزء الاول منه الاستاذ الجليل اسماعيل مظهر تحت عنوان بين الدين والعلم.

J.M. Robertson, A. Short Hist. of Free-Thought. 2 vols.

M.Barni. Les martyrs de la Libre Pensée.

Encyclopedia of Religion & Ethics.

في المواد الاتية بوجه خاص (وقد اشترك فى كتابة بعضها عدة علماء) :

Toleration, Persecution, Inquisition, Saints & Martyrs, Anti Semetism, & Protestantism.

G. Lebon (1) Lois psychologiques de l'evolution des peuples 1894.

وقد ترجمه الي العربية احمد فتحي زغلول باشا تحت عنوان « سر تطور الامم » ١٩٢١

2) La revolution Française et la psychologie des revolutions

وقد ترجمه الاستاذ محمد عادل زعيتر تحت عنوان «الثورة الفرنسية وروح الثورات ».

---

(١) بعض المصادر التى ذكرناها في هوامش الكتاب لم يرد ذكرها هنا. وبعض المصادر المشار اليها هنا ذكرناه لمن شاء التوسع في دراسة موضوع الكتاب وان لم نتمكن نحن من قراءته.

M. Creighton Persecution and Toleration. London 1895.

الكتاب المقدس (ولاسيما انجيل متي فى العهد الجديد)

توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسفة ١٩٤٧ (والكثير مما ورد فيه من مصادر)

ب ـ عن المسيحية (الكاثوليكية والبروتستانتية) عدا ما أسلفنا ذكره فى المصادر العامة :

Rohrbakers Hist. de l'Eglise Catholique.
Milman. Hist. of Christianity.
Lindsay. A Hist. of Reformatien.
Mackinnon. Origin of Reformation.
Merle. The great Reformation of the 16th. Century in Germany 5 vols.
Henri. Life of Calvin.
B.Rube. Hist. des persécutions de l'église jusqu'à la fin des Antonius (Paris 1875)
H.M.Gwatkin. Early Christian History 2 vols. London 1879
Montbeliard. Les idées de Luther sur la répréssion de l'hérésie,1901

جـ ـ عن محكمة التفتيش :

H.Lea. 1. A Hist. of the Inquisition of the Middle Ages 3 vols.
2. A Hist. of the Inquisition in Spain, 4 vols.
Coulton. Inquisition and liberly.
D.J.A. Llorente Hist. Critique de l'inquisition d'Espagne.
Maycock. The Inquisition.
Fereal. Mystères de l'inquisition.
H.Ch.Lea. Hist, de l'Inquisition au moyen age (Eng translation by S. Reinach 1900)

د ـ عن الاسلام .

القرآن الكريم ، تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) والمنار للسيد محمد رشيد رضا ـ والطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن)

محمد عبده : الاسلام والنصرانية الطبعة الاولى

رسالة التوحيد الطبعة السادسة

فرح انطون : ابن رشد وفلسفته ۱۹۰۳
محمد حسين هيكل باشا : حياة محمد (الطبعة الثانية)
الفاروق عمر بجزئيه الطبعة الاولى
احمد امين بك : فجر الاسلام الطبعة الثالثة
ضحي الاسلام ج ۱ الطبعة الثالثة (۱۳۸)

ه. عن التسامح الديني :

Ameer Aly.	The Spirit of Islam 1923.
Kamal Mohd. Ben Mostafa	La tolérance religieuse dans l'Islamisme, traduction; Bazard; Alger 1902.
Encyc. of Religion	& Ethics art. Persecution & art. Toleration (by A.T.W Arnold.)
F. Ruffini.	Religious Liberty (Eng. trans. by J. Parker Hayes, with a preface by J.B. Bury 1912)
P. Schaff.	The progress of Religious Freedom as shown in the Hist. of Toleration Acts New York, 1889.
Matagrins.	Hist. de la Tolérance Religieuse: Evolution d'un principe social; Paris, 1905.
Maillet.	L'Eglise et la répréssion sanglante de l'hérésie, Liège Paris, 1909
Vermeersche, S.J.	La Tolérance; Louvin 1912.
Dubois.	Bayle et la Tolérance, Paris 1902.
Wallace.	St. John. The Contest for Liberty of Conscience in England; Chicago, 1900.
Russel Smith.	The theory of Religious Liberty in the Reigns of Charles II — James II; Cambridge, 1911.
Seaton.	The Theory of Toleration under the Later Stuarts; Cambridge; 1921.
Bonet - Maury.	Hisoire de la Liberté de Conscience en France depuis L'Edit de Nantes jusqu'en 1870; 2me. ed. Paris 1909.
Robert.	Voltaire et L'intolérance religieuse, Lausanne, 1904.
Thadeus de Trantsmandorff.	La Tolérance écclesiastique et civile.
J. Godwin.	Plea for Liberty of Conscience 1944.

كشاف

باهم الأعلام والمصطلحات

ابن الراوندي ١٥٢ ١٥٣

ابن رواحه (عبد الله) ١٦ ١٧ ١٦١

اثناغوراس ٣٦ ١٧

أرمانيوس ١١٤ ١١٧

آريوس ٤٦ ٤٩ ٥٠ ٥٢

اليصابات Elizabeth ٨١ ٨٨ ٩٣

الامام (انظر محمد عبده)

أمبروز ٥٥

أنابابتست (انظر: منكرو التعميد)

إنوسنت الثالث ٦٦ ٦٧ ٧٨

إنوسنت الثامن ٥٧

أوغسطين (القديس) ٤٥ ٥٠ ٥٧

٦٠ ٦٨ ٩٣ ٩٨ ١٢٦

إيثاكوس ٥٥

بابتست Baptists انظر : تعميد

(أصحاب)

البابية (ديانة) ٧ ٢٢ ٢٣

برسبتريون Bresbyterians ١١٧ ١٢١

بنيامين ١٧—١٩ ٦٣

بونيفاس الثامن ٥٧

بيزا ١٠٣ ١٠٦

بين (توماس) ١٣٧

بيوريتان ٩٤ ١١٥ ١١٦

بيوس التاسع ٨١ ١٤٠

بيوس الخامس ٨١

ترتليان ٣٨ ٤٦ ٥٦

التسامح الديني ٧ ٨ ١٠-١٣ ٣٣

٣٤ ٣٨ ٤١ ٤٢ ٤٤ ١٦ ٤٧

٥٦ ٦٨ ٨٣ ٨٦ ٩١ ٩٣ ٩٥

٩٦ ١٠٢ ١٠٦ ١١٠ ١١٤ ١٢٨

١٢٩ ١٣٢ ١٣٤ ١٤٣ ١٦٢ ١٦٥

الي ١٦٧ ١٦٩ ١٧٣-١٧٧

تشرشل ١٧٧

تشارلس الاول ١٠٤ ١١٦

تشارلس التاسع ٨٩ ٩١

تشارلس الثاني ٩٤ ١١٥ ١١٩ ١٢١

تشارلس الخامس ٧٩

تعصب ٢ ١١ ١٤ ١٧ ٢٠ ٣٢

٣٣ ٣٥ ٣٨ ٤٤ ٤٦ ٥٤ ٥٩ ٦٣

٧١ ٨٠ ٨٦ ٨٧ ٩٥ ٩٦ ١٠٠

١٠٥ ١٠٨ ١١١ ١١٥ ١١٩ ١١٩
١٢٠ ١٢٣ ١٢٥ ١٢٧ ١٣١ ١٣٤
١٦٦ ه ١٦٧ ١٧٣-١٧٦ ١٧٧
١٧٩
١٣٨ ١٤١ ١٤٤ ١٤٧ ١٤٨
تعميد (أصحاب) ١٢١
تورکويمادا ٧١ ٧٩
تيودوسيوس ٤٥ ٥١ ٥٣ ٥٥
جريجورى التاسع ٧٠
جريجوري الثالث عشر ٩٠
جريجورى السادس عشر ١٧٨ ١٤٠
جعفر بن أبى طالب ١٦ ١٧
جوستين ٣٦ ٣٧
جيمسن الاول ٩٣
الحرمان (الكنسى) ٣٥ ٥٧ ٦٦ ٨١ ٨٨
الحريه الدينية ٧ ٨ ٣٢ ٣٣ ٤٢ ٦١ ٦٧
٨٥ ٩١ ٩٢ ١٠٢ ١٠٦ ١٠٨ ١١١ ١١٣
١١٦ ١١٨ ١٢٠ ١٢٢ ١٢٤ ١٢٦ ١٢٧
١٣٧ ١٤١ ١٤١ ١٤٣ ١٤٧ ١٥٦
١٦٦ ١٦٩ ١٧٤ ١٧٩
حرية (الضمير والفكر والنظر) ٣١
١٠٠ ١٠٥ ١٠٧ ١٠٨ ١١٤ ١١٦ ١١٨
١٢٧ ١٣٩
دريفوس(الفرد A. Dreyfus) ١٤٢
دقلديانوس ٣٣ ٤٠ ٤٢ ٤٧
ديوان التحقيق (أنظر محكمة التفتيش)
الرازى (زكريا) ١٥٢
الرازي (فخر الدين) ١٦٠ ه
روجر وليامز ١١٥
روسو (جان جاك) ١١١ ١٣٥ ١٣٦
ريشليو ٩٢
رينان ١٤١
زونجلى ٨٧ ٩٥ ١٠٤ ١٣٩
زيد بن حارثه ١٦ ١٦١
سرفيتوس ٩٩ ١٠٥ ١٠٦ ١١٤
سكستوس الرابع ٧١
سوسينوس ١٠٤ ١٠٦ ١١٤
شاتليون (أنظر كاستليو)
شارلمان
شانسيه ١٢٤

شلنجويرث ١١٨ ١١٩ ١٢١ ١٦١ ١٧٤
الشيرازى «على محمد» ٢٢
صؤاب الحبشى ٢١
الصوصنية ١١١ ١١٣ ١١٥
الصهيونية ١٤٢
طه حسين ١٥٧
طلحه بن أبي طلحه ٢١
عبد الجبار (المحتسب) ١٥٠
عبد الرزاق (على بك) ١٥٧
عبد الرازق (المغفورله مصطفى باشا) ٣
غاندى ٣١
فردريك الأكبر ١٣٣ ١٣٦ ١٣٩
فردريك الثانى ٧٠
فولتير Voltaire ١٣ ١٤ ٩٣ ١١١ ١٢٥
١٢٧-١٢٩ ١٣١-١٣٦ ١٣٩
فيليب (أمير هس) ١٠٣
فيليب الثاني ٨٧ ٩٠
قسطنطين ٤٢ ٤٤ ٤٥ ٤٨ ٥١ ٦١
قيرس ١٧ ١٨ ٦٣
كرمويل ٩٤ ١٩٧
كلفن Calvin ٨٤ ٨٩ ٩٥ ١٠٠ ١٠٣
١٠٥ ١٠٦ ١٠٨ ١١٢ ١١٤ ١٣٦ ١٣٩
كليمان الاسكندرى ٣٨ ٣٩
كوبرنيكوس ١٠٧
كويكرز ١١٥ ١١٧ ١٢٠
لاكتانتيوس ٤٧ ٥٦
لوثر (مارتن) ٨٤ ٨٦ ٨٧ ٩٩ ١٠١
١٠٢ ١٠٥ ١٠٧ ١١٢ ١١٤ ١٣٩ ١٤٠
لوك(جون) ١١١ ١٢١ ١٢٣ ١٢٦ ١٤١
لويس التاسع ٧٠
لويس الخامس عشر ٩٣
لويس الرابع عشر ٩٢ ١٧٧
ليبانيوس ٥٣
ليكينيوس ٥١
ليو الاكبر (البابا) ٤٣
مارتن (القديس) ٥٦
ماركوس (اورليوس) ٣٦ ٣٧
المانوية ١٤٨ ١٤٩ ١٥١ ١٥٢
محكمة التفتيش ٧ ٥٢ ٥٧ ٦٦ ٧٦ ٧٨
٨٨ ١٤١
مجمع (مجلس دينى) : افسوس ٥٢ ه
أفينون ٦٦
: خلقيدونيه ١٧ ١٨ ٦٣
: الفاتيكان ٢٩ ٩١

تابع مجمع :
كنستانس ٨٤ ه
لاتران ٦٦
ميلان ١٧٣
ورمس ٨٣
محمد عبده (الامام) ١٤٧ ١٥٤ ١٥٥
١٥٦
مذبحة : الالبيجيين أو الالبيين ٤٦ ٥١
٦٤ ٦٦ ٦٩ ٧١ ١٧٦
سان بارتلميو ٨٩ ٩١ ١٥٤ ١٦٩
الشيعه ١٤٧ ١٥٣
مرسوم نانت ٩٢ ٩٣ ١٢٧
المقوقس ١٨ ١٩
ملانكتون ١٠٦
ملتون ١١٧ ١١٨
الملكانيون ١٨ ٦٣ ٦٤ ه
المنصور (جعفر) ١٤٩
منكر والتعميد (أنابابتست Anabaptists
١١٥ ١١١ ١١٤ ١١٥
المهتدون (أنظر البرسبتريون)
مؤامرة البارود ٩٣ ٩٤
الموحدون ١٢٠ ١٢٣
مونتانى Montaigne ١٢٤ ١٢٧
ميرابو ١٣٧
نيرون ٣٣ ٣٤
الهادي ١٤٧ ١٥٠-١٥٢
هارنجتون ١١٧ ١١٨ ١٢١
هرقل ١٧ ٦٣
هنرى الثاني ٨٩
هنرى الثالث ٩١
هنرى الخامس ٧١
هنري الرابع ٧١ ٩١ ٩٢ ١٢٧
هويز (توماس) ١٢١ ١٢٢
هوس (جون) ٨٤ ه
هند بنت عتبه ٢٦
وحش الحبشي ٢٦
الوفد المصرى ١٤٣
ويكلف ٨٤ ه

فهرس

إهداء الكتاب

قرآن كريم

١ - مقدمة الكتاب ص ٧-٣٢

٧ تمهيد — ٨ علاقة هذا الكتاب بكتابنا عن النزاع — ١٠ من قوانين الايمان — ١١ براءة الأديان من تبعات الاضطهاد — ١٢ إمكان الجمع بين الايمان والتسامح — ١٣ ضرورة الابقاء على الايمان — ١٤ لا يملك العدالة متعصب ذو نفوذ — ١٥ من خصائص الغلو فى الايمان — من شهداء الاسلام — ١٧ من شهداء المسيحية الشرقية — ١٩ من شهداء البروتستانت — ٢١ من قتلى قريش — ٢٢ من شهداء البابية — ٢٤ ظمأ الانسان إلى إهراق الدم — ٢٥ الشغف بالدم عند نساء قريش — ٢٦ الشغف بالدم فى الثورة الفرنسية — ٢٧ فى محارق محاكم التفتيش — ٢٨ استعلاء الجانب الحيواني في الثورات — ٢٩ حق رجال الدين في دفع الكفر — ٣٠ قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد — ٣١ الاضطهاد عدوان على حرية الضمير

(أ) الاضطهاد الدينى ص ٣١ - ١١٠

١ - اضطهاد المسيحية ص ٣٣ - ٤٤

٣٣ أسباب اضطهادها — ٣٤ اضطهاد نيرون للمسيحية — ٢٥ حركة الاضطهاد فى القرن الثاني — ٣٥ دفاع المسيحيين عن دينهم — ٣٧ بغض هؤلاء المدافعين للحضارة الرومانية — ٣٨ القرن الثالث بين الاضطهاد والتسامح —

٤٠ اضطهاد المسيحيين فى عهد دقلديانوس — ٤١ انتصار المسيحية على هـذا الاضطهاد — ٤١ تبرير اضطهاد الرومان للمسيحية — ٤٢ التسامح وبدء نفوذ الكنيسة في روما — ٤٤ تعقيب

٣ ـ الاضطهاد فى المسيحية ص ٤٥ ـ ٦٨

٤٥ — أثر الاضطهاد الاسرائيلى فى الاضطهاد المسيحي —٤٦نزوع الآباء الأولين الى التسامح — ٤٨ الاضطهاد فى المسيحية ٤٩ — الشقاق في داخل الكنيسة — ٥١ اضطهاد قسطنطين للملحدين — ٥٢ من آثار الاضطهاد فى القرن الرابع — ٥٢ اضطهاد تيودسيوس للملحدين — ٥٣ من عوامل نمو الاضطهاد — ٥٥ بدء الاعدام فى المسيحية — ٥٥ موقف الاكليروس من إعدام الملحدين — ٥٧ القديس أوغسطين ومكانته — ٥٩ انتصاره للاضطهاد — ٦١ عقيدة الخلاص والاضطهاد — ٦٢ اضطهاد المسيحيين بعضهم لبعض في مصر — ٦٤ الاذعان للكثلكة وانتفاء الاضطهاد — ٦٦ عودة الكنيسة الى مقاومه الروح الجديد — ٦٦ مذبحة الألبيجيين — ٦٧ تعقيب

٤ ـ محكمة التفتيش فى العالم الكاثوليكى ص ٦٩ ـ ٨٢

٦٩ — نشأة محكمة التفتيش — ٧٠ من نظام محكمة التفتيش — ٧١ محكمة التفتيش فى أسبانيا — ٧٢ لماذا انتصر الاضطهاد على الاسلام فى أسبانيا ـ ٧٢ أساليب محكمة التفتيش مع خصومها ـ ٧٤ من آثار محكمة التفتيش — ٧٥ من وجوه التعذيب عند محكمة التفتيش — ٧٦ إثارة الألم والهلع فى النفوس ـ ٧٨ إحصاء ضحايا محكمة التفتيش — ٨٠ بين اضطهاد الحقيقة العلمية والعقيدة الدينية ٨١ تدرج الكنيسة من الرحمة الى التنكيل

٥ - اضطهاد البروتستانت ص ٨٣ - ٩٨

٨٣ تهجم المصلحين على الكنيسة - ٨٥ بواعث اشتداد النزاع بين المعسكرين - ٨٦ الحروب الدينية فى المسيحية — ٨٦ بدء النزاع بين البابوية والبروتستانت - ٨٧ الحروب الدينية التي أثارها فيليب الثانى - ٨٩ مذبحة سان بارثلميو - ٩٠ فرنسا بعد المذبحة - ٩١ البروتستانت بين التسامح والاضطهاد - ٩٣ النزاع فى انجلترا منذ قيام الاصلاح الديني - ٩١ تآمر الكاثوليك على نسف البرلمان - ٩٤ اضطهاد الكاثوليك - ٩٥ حرب الثلاثين عاما - ٩٥ مبررات اضطهاد البروتستانت ٩٦ حقيقة البروتستانت والاضطهاد — ١٧ موقف المسيحية السمحاء من هذا الاضطهاد .

٦ - الاضطهاد عند البروتستانت ص ٩٩ - ١٠٨

٩٩ نصيب العقل في حركة الاصلاح الدينى - ١٠٠ الاصلاح والمنطق الديني ١٠١ بواعث الاصلاح الدينى - ١٠٢ تبعات الكاثوليك والبروتستانت فى الدعوة للاضطهاد - ١٠٣ حماسة البروتستانت للاضطهاد - ١٠٤ دعوة لوثر للاضطهاد - ١٠٥ موقف البروتستانت من احراق سرفيتوس - ١٠٧ البروتستانتية وحركات التنوير - ١٠٨ تعقيب

التسامح الدينى ص ١٠٩ ١٧٠

٧ - فجر التسامح الدينى ص ١١١ - ١٤٣

١١١ مساهمة الاصلاح الديني فى تأييد الحرية الدينية — ١١٣ فضل الصوصنية على ابتداع الحرية الدينية — ١١٥ الفصل بين السلطتين عند منكرى التعميد — ١١٦ بدء التسامح في انجلترا — ١١٨ رواد التسامح فى انجلترا — ١٢١ التسامح الدينى في فلسفة لوك — ١٢٣ التسامح فى انجلترا

بعد القرن السابع عشر — ١٢٤ تداعي الاضطهاد في فرنسا بظهور الشك — ١٢٥ رواد التسامح في فرنسا — ١٢٨ حملة فولتير على التعصب الديني — ١٢٩ دفاع فولتير في قضايا التعصب : مأساة جان كالا — ١٣١ دفاع فولتير في هذه المأساة ١٣٣ دفاعه في مأساة سيرفين ١٣٤ حقيقة التسامح عند فولتير — ١٣٥ موقف روسو من الاضطهاد ١٣٦ التسامح المطلق في الثورة الفرنسية — ١٣٨ مغزى تاريخ التسامح في انجلترا وفرنسا — ١٣٩ انتصار التسامح الديني في بروسيا في القرن الثامن عشر — ١٤٠ أثر ألمانيا في غيرها من الدول — ١٤١ قيام الحرية الدينية في أوربا في القرن الغابر — أسباب اضطهاد اليهود — ١٤٣ تعقيب

٨ — الإسلام والاضطهاد ص ١٤٥ - ١٧٠

١٤٧ بواعث الاضطهاد في الاسلام — ١٤٨ معنى الزندقة في الاسلام — ١٥٠ فشو الزندقة في العصر العباسي — ١٥٠ اضطهاد المهدي والهادي للزنادقة ١٥٢ اضطهاد الزنادقة بعد الهادي ١٥٣ استئصال القرامطة — ١٥٤ مذبحة الشيعة — ١٥٤ من آثار الجمود في العصر الحديث — ١٥٥ نماذج من شكوى الأستاذ الامام — الجمود في وقتنا الحاضر ١٥٧ اتهام الفاروق باضطهاد الذميين — ١٥٨ الاستشهاد في القرآن الكريم — ١٦٠ الاستشهاد عند رسول الله — ١٦١ حب المؤمنين للاستشهاد في سبيل الله ١٦٢ القتال المباح في الاسلام — ١٦٤ الجهاد في الاسلام — ١٦٤ الحرية في الاسلام — ١٦٦ موقف الاسلام من الذميين — ١٦٧ سماحة الفاروق مع المسيحيين — ١٦٨ أسباب ما أسلفناه من وجوه الاضطهاد ١٦٩ تعقيب .

٩ — كلمة أخيرة ص ١٧١ - ١٨١

١٧٣ بدء التسامح الديني — ١٧٣ مراحل التسامح — ١٧٤ أثر المذهب العقلي

في تقويض الاضطهاد – ١٧٥ انتفاء العدالة باجتماع التعصب والسلطة — ١٧٥ متى ينجح الاضطهاد ومتى يفشل – ١٧٦ التسامح الديني بين المدنية الاوربية والقرآن الكريم – ١٧٧ استمرار التعصب الديني في اوربا الحديثة — ١٧٨ موقف مصر الحديثة من الاضطهاد — ١٧٩ موقف المسيحية من التعصب في اوربا ١٨٠ تبعة النصوص المقدسة في الاضطهاد.

مصادر الكتاب ص ١٨٢-١٨٤

كشاف بأهم الأعلام والاصطلاحات ص ١٨٥ - ١٨٨

فهرس الكتاب ص ١٨٩ - ١٩٣

كتب المؤلف ص ١٩٤ - ١٩٥

ما نشر من كتب المؤلف

السلسلة الفلسفية والاجتماعية : (ظهر منها أربعة كتب قامت بنشرها ، كتبة الآداب)

١ - قصة النزاع بين الدين والفلسفة : بحث في تاريخ هـذا النزاع في المسيحية والاسلام ، مع رده الى بواعثه وأسبابه ، والكشف عما نجم عنه من آثار ، وبيان وجه العظـة في أمره .

٢ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى: بحث في التصوف الذى استبد بهوى مصر فى ذلك العصر ، مع بيان أثره في توجيه الحياة المصرية ، وهو محاولة أريد بها أن يفلسف التاريخ المصرى .

٣ - علم الغيب فى العالم القديم Divination: ترجمة بحث وضعه شيشرون Cicero وناقش فيه فنون التكهن الصنعي والتنبؤ الطبيعي عند القدامى - ومع الترجمة العربية شرح للاصل وتعليق عليه .

٤ - الأحلام : دراسة مقارنة للمذاهب الاسلامية فى موضوع الأحلام مع ردها الى أصولها فى التراث اليونانى والشرقي القديم ، وبيان مايقابلها عند المحدثين من علماء النفس .

ثم كتب ظهرت فى سلاسل أخرى

٥ - قصة الاضطهاد الدينى : قامت بنشره دار الفكر العربي وهو الآن بين يدى القارىء .

٦ - التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام: بحث في فنون التنبؤ الطبيعي والتكهن الصنعى عند مفكري الاسلام فلاسفة وصوفية ورجال دين - وقد صدر فى سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية .

٧ـ الشعرانى إمام التصوف فى عصره : بحث في أعظم صوفي عرفه العالم الاسلامي في القرون السبعة الاخيرة فيما يقول المستشرق نيكلسون ـ وقد صدر في سلسلة أعلام الاسلام .

٨ـ قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة : سيرة النضال الدامي الذي انتهي بأروع مأساة عرفها تاريخ الدنيا : فناء أمة في ساحة الجهاد ـ أصدرت الطبعة الأولي لجنة الجامعيين لنشر العلم ، وأصدرت الطبعة الثانية مكتبة الآداب .

٩ـ تراث الاسلام The legacy of Islam : مجموعة أبحاث وضعها أعلام المستشرقين عن فضل التراث الاسلامى على الحضارة الاوربية ـ أصدرت لجنة الجامعيين لنشر العلم جزءين منه. المؤلف فيه ترجمة الجزء الذي وضعه ا . جيوم عن الفلسفة والالهيات مع الشرح والتعليق .

الكتابات التاليات

١٠ـ الابستمولوجيا أو نظرية المعرفة : Epistemology : بحث في المذاهب الفلسفية التي قيلت في طبيعة المعرفة البشرية وماهيتها ، وعرضت لدراسة أصولها وأدواتها ، وتناولت بالبحث امكان قيامها أو الشك فى وجودها .

١١ـ المجمل فى تاريخ علم الأخلاق : ترجمة وتعليق بالاشتراك مع الزميل الأستاذ عبد الحميد حمدى (تأليف الدكتور سدجويك H. Sidgwick أستاذ الفلسفة الخلقية في جامعة كمبردج ـ تصدر الترجمة العربية فى جزئين)

DATE DUE

AUG 1973

al-Tawiil, Tawfiiq
Qissat al-idtihaad al-dii
nii fii al-Masiihiyyah wa
BR 1600 T3x 1947

1 DEC 199[illegible]
main
00000111664
BR 1600 T3x 1947